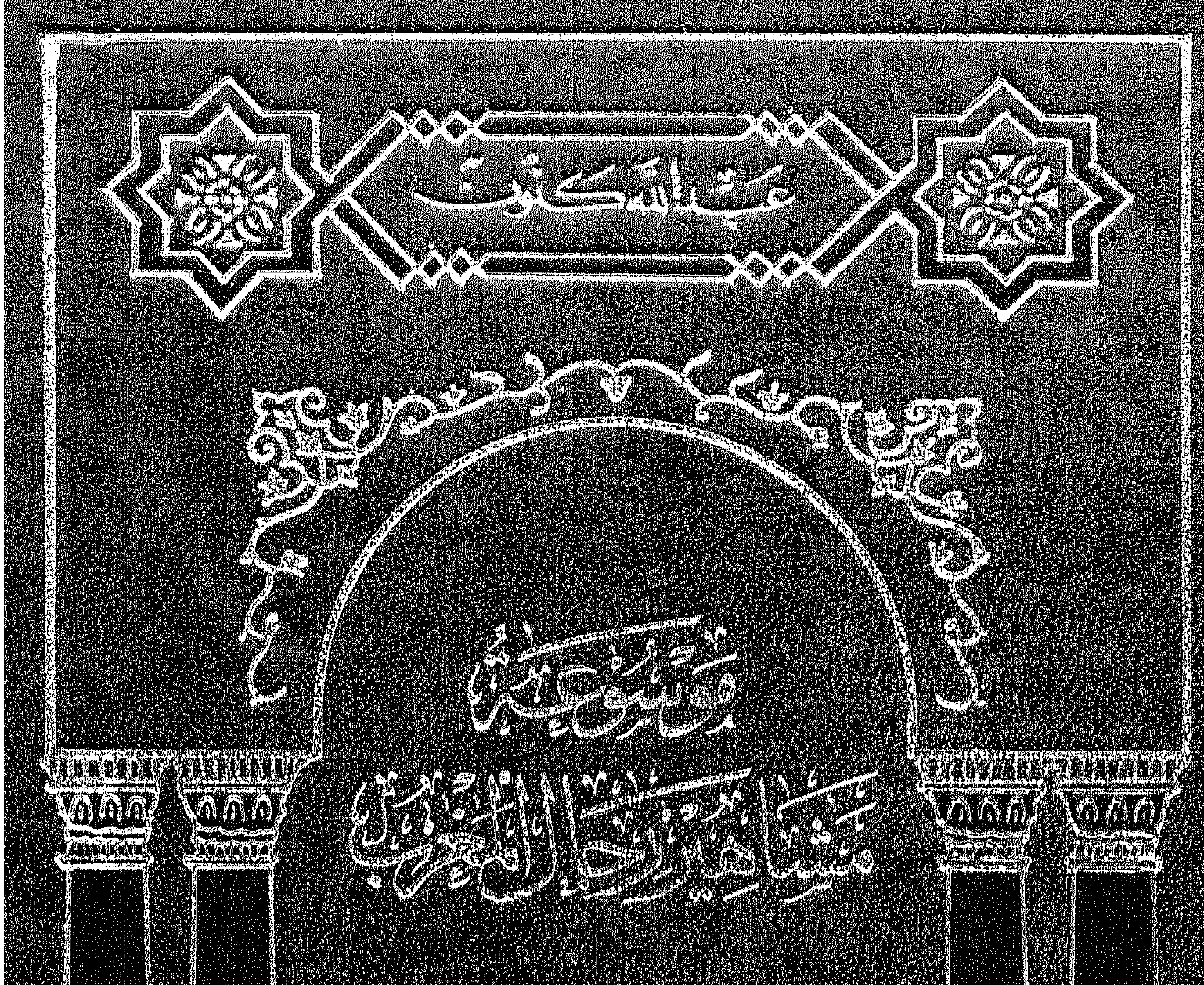

عبد الله كنون
موسوعة
مشاهير رجال المغرب



أحمد بن شعيب الجرنائي

ابن هاني السبتي

محمد المسناوي

محمد بن المدني كنون

عبد الملك المعتصم

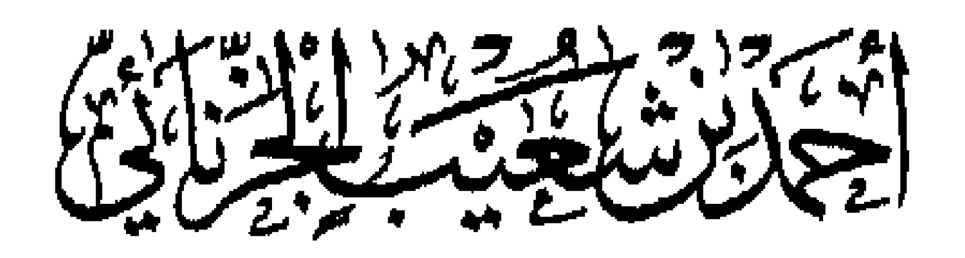
محمد الخامس

محمد بن عبدالكريم الخطابي

سابق البربري

النابغة الهوزالي

أبو الحسن المسفر


أحمد بن شعيب النسائي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٢٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١
برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
TELEX No: 23081-23381-22181-21881
ATT: MR.HASSN EL-ZEIN
FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦٠٧٩٢٤ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX: DKL 23715 LE
بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



41

أحمد بن شعيب الجزنائي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

أحمد بن شعيب الجزنائي

اسمه ونسبه ـ عبقريته العلمية وكفايته الأدبية ـ دراسته ومشيخته ـ قبيلة جزناية وما اشتهر عنها من البدعة ـ رد قول ابن الخطيب فيه أنه مُقِت لاشتغاله بالفلسفة ـ عَملُه في البلاط المريني ـ ترفعه عن التكسب بالشعر، شعره ـ نثره ـ وفاته .

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن شُعَيْب، وبه عُرِف، التَّازِي داراً الفاسي قراراً، الجزِنَّائِي أصْلاً ونِجاراً، نِسبةً إلى قبيلة جِزنَّـايَة المعروفة من قبائل إقليم الرِّيف، وهي بِالجِيم المِصْرية، ولذلك تُكتَبُ أحياناً بِالكَاف: الكاتب الشاعِر الفِيْلَسُوف الطَّبِيب الكِيماوي المُجَرِّب.

عرَّف به ابنُ الأحْمر في كتابَيْه: نثر الجُمان ونثْر فرائد الجمان، وابنُ الخَطِيب في كتاب الإحاطة وغيْرِها، وذكرَهُ ابنُ خلدون في تَارِيخه وفي كتَاب التَّعْريف، وأثْنَى عليه كثيراً. ونَنقُل ترجَمَةَ ابنِ الأحمر له في كتاب نثْر فرائِد الجمان إذْ كانت أوْسعَ من غيرها، ونُعقِّبُ عليها بما يقتضيه الحال.

قـال ابن الأحمر: «سـابِقٌ ركَضَ في مَيْدان الشعـر فَجلّى، ومـاهِـرٌ طلعَ في سماء الإجادة فتَجلّى، له في الطب قدم في صحته وعِلّته رسخت، وفي أحكام النجـوم آية بـإعجـازهـا سـور(١) الكلدانيـين نسخت، وبـرع في الحسـاب وأحكامه، وأصاب في الفقه وأحكامه، وأدبه من الأصول حظ وافر، كما وجْهُ النحو له سافر، والإنشاء أجرى في لوح الإحسان قلمه، واطلع بين جبـال تَنْميقـهِ عَلَمَه، ومـدينة تـازا مسقط رأسه، ومتـوقد نـبراسه، وطـرأ على فـاس فحمدت سُراه، وقالت ما أجمل مسراه. وصميم منتسبه في البربر جزنـاية، حيث الاعتزال عمت به الجناية، ولو كان من الأعراب لشُمل في شعرائها، وحمل راية الكلام في أمرائها.. والعجب من بربـري الأصل يـدرك مدارك الأعراب ويأتي من الفصاحة اليعربيَّة بالإغراب».

أول دلالة هذا الكلام أن المترجم كـان ذا عبقريـة محيطة بجملة من المعارف والفنون تجعل منه شخصية علمية وأدبيه مرموقة، وقَلَّما اجتمع العلم والأدب بمعناهما الكامل إلا للنوابغ الأفذاذ وأهل الكفايات النادرة.. وكان من واجب ابن الأحمر أن يذكر لنا أين درس، وعمن أخذ من الشيوخ والأساتيذ، فإن هذه الحصيلة الـوافرة من العلوم لا تتـأتى بدون سعي واجتهـاد وتلقين وتفهيم، وقد أشار إلى شيء من ذلك لسان الدين في الإحاطة حين قال:

«قرأ في بلدة فاس على كثير من شيـوخها كـالأستاذ أبي عبـد الله بن أجروم

---

(١) بالأصل: صدور الكلدانيين، ونظن أن الصواب ما أثبتناه، وفي أصل المخطوط الوحيد من نثر الفرائد الموجود بدار الكتب المصرية تصحيف كثير حاولنا جهدنا أن نصحح ما ننقله منه.

والأستاذ أبي عبد الله بن رُشَيْد، ووصل إلى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رُحْلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن الدراس».

فهذا النص يلقي الضوء على بدايته ومكان دراسته وإن لم يستوعب الكلام في ذلك كما يجب. ثم إن قوله قرأ في بلدة فاس لا يصح مع ما ذكره ابن الأحمر من أنه ولد بتازا وفيها نشأ وأنه طارىءٌ على فاس وليس من أهلها، والغالب أن قول ابن الخطيب في بلده محرف عن بلدة بالتاء، وإن كان وصف فاس ببلده غريباً.

ويشير ابن الأحمر إلى قبيلة المترجم جزناية ويصفها بجناية الاعتزال، وهو يطلق هذا الوصف بمعنى عامّ، إذ الذي نعلم من حال هذه القبيلة هي أنها كانت ما تزال متمسكة ببعض تعاليم المهدي بن تومرت التي بثها في القبائل البربرية، وقد كان منها بعض عقائد الشيعة، والشيعة يميلون إلى الاعتزال، فلعله إنما وصفها به لذلك.

وفي المعيار سؤال مرفوع إلى فقيه تازا ومفتيها الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن رحمه الله عن طائفة جزناية من أخماس تازا هذا نصه: (الحمد لله سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في قوم فَارَقُوا الجماعة ويكفرون المسلمين ولا يأكلون ذبائحهم ولا يصلون خلفهم ويقولون من لم يؤمن بالمهدي بن تومرت فهو كافر ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويقولون من لم يعلم اثني عشر باباً من التوحيد فهو كافر وينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي، بينوا لنا الرد عليهم في ذلك وما يلزمهم والسلام عليكمْ ورحمة الله تعالى وبركاته). وقد أجاب الفقيه المذكور

عن جميع فصول السؤال بما تقتضيه أدلة الشرع، وما يهمنا هنا هو النحلة التي كانت عليها قبيلة جزناية والتي نعتها ابن الأحمر بالاعتزال وما هي منه بالمعنى الدقيق للكلمة.

على كل ما نظن أن صاحبنا ابن شعيب كان من المنتمين لهذا المذهب الزائغ، ولا نعتقد أن في جزناية اليوم من يرفع به رأساً، فقد قضى علماؤنا رضي الله عنهم على أمثال هذه الانحرافات في غير ما قبيلة وبلد، ودلوا الناس على الجادة ونوروهم بالعلم وهَدْي السنة والكتاب، فلم يبق في ناحية من نواحي المغرب من يعتقد شيئاً من المذاهب والآراء الباطلة.

وأخيراً يتعجب ابن الأحمر من نبوغ المترجم في اللغة العربية والأدب ومزاحمته بالمنكب لشعراء العرب وأمراء الكلام فيهم، مع أنه بربري الأصل، وهو تعجب في غير محله، فالناس لا تتفاضل بالأصول وإنما تتفاضل بالجد والعمل، فكم من عربي أصيل لا يحسن تركيب جملة عربية ولا يعرف من قواعد لغته مسألة واحدة، وعلى العكس كم من عجمي الأصل برع في الأدب واللغة والشعر بحيث فَارقَ الكثير من العرب في ذلك؛ وناهيك بأن الكتاب الأول في نحو العربية هو لعجمي وليس لعربي، والمختصر النحوي المغربي الذي يُعدُّ ألف باء علم العربية هو لابن آجرُّوم وهو بربري كما هو معلوم، والشعراء الذين يرجع أصلهم إلى غير العرب ولا سيما المولدون لا يحصون ولا يعدون، وقد ألمعنا إلى هذا المعنى بكلمة مشابهة في ترجمة الشاعر الجراوي فلتنظر هناك.

ويؤكد ابن خلدون تنوع كفايات مترجمنا وينوه به أكبر تنويه فيقول في

كتـاب التعريف عنـه : «بـرع في اللسـان والأدب والعلوم العقليـة من الفلسفيـة والتعاليم والطب وغيرها ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده) .

ونلاحظ بكل أسف أن هذه الناحية العلمية من المترجم قد دخلت في ذمة التاريخ، فليس بيدنا ما يكشف لنا عنها إلا أن نقف على أثر من آثاره فيها ومن أين لنا ذلك؟ .

إنما الذي نتحققه أنه كان فيها قوياً متيناً بالنسبة لوقته وظرفـه طبعاً، فالطبيب الذي يخدم السلاطين أمثال أبي سعيد وأبي الحسن المـرينيين لا يكـون طبيباً مزيفاً ولا ممن يترامى على الصناعة وليس له فيها يد، ناهيك بشهادة ابن الخطيب له وقد كان يتعاطى شيئاً من هذه المهنة، إذ قال فيه: (من أهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيها، وقد أضاف إلى ذلك الاشتغال بالكيمياء، ولها بالطب أكبر عـلاقة). ومن قـول ابن الخطيب عنـه في هذا الصـدد: «وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار فلم يحصل على طائل إلا أنه كان يتفوه بالوصول، شنشنة المفتونين بها على مدى الدهر».

وهذا الكلام وإن كان المراد به الكيمياء القديمة، إلا أنه يفيد تضلعه في هذا العلم بعامة، وهو مما يدل على رسوخ قدمه في الطب ولا يعنينا من كلام ابن الخطيب غير هذا القدر، وما زاد عليه فهو من شقشقته المعروفة. وكذا قوله بعد أن ذكر نبوغه في الأدب: (والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مُقِتَ لذلك) فليت شعري من الذي مقته، وقد كان بحيث يتنافس فيه الملوك ويخدم

في خاصة رجال البلاط كاتباً وطبيباً ولم يستغن عنه أبو الحسن حتى صحبه في حركته إلى إفريقية، وهلك بمعيته هناك.

على أن العلامة ابن مرزوق يشير إلى نفرة السلطان أبي الحسن منه، ولكنه لا يجعل سبب ذلك اشتغاله بالعلم والفلسفة، وهو يبرئه مما عسى أن يظن به لذلك. وهذا كلامه في كتابه المسند الصحيح الحسن: «وكان مولانا رضي الله عنه ينفرُ منه لموجب الله أعلم بحقيقته، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد. ولقد خبرته وذاكرته وباحثته - عَلِم الله غير مرة - فما اطلع والله منه إلا على ما يرضي» فبان بهذا أن أحداً لم يمقت ابن شعيب لنزعته الفلسفية واشتغاله بالحكمة. والسلطان نفسه وإن كان ينفرُ عنه لسبب لا نعرفه، لم يستغن عنه حتى آخر نفس، وحسبه ذلك عزاً وشرفاً.

والمقصود أن لا يتقول مُتقوّلٌ على عصر التقدم في الحضارة والعرفان بالمغرب، وهو عصر بني مرين، فينسُب إليه استناداً إلى قول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت، ويسجل عار ذلك على رجال الدولة والشعب وربما نسبه إلى التعصب الديني، مع أن المعروف في التاريخ أن هذا العصر كان من أكثر العصور تسامحاً، لذلك تقدمت فيه العلوم وكثر المشتغلون بها بين المغاربة أنفسهم بشكل لم يسبق له مثيل ولم ينقل عنه ولا حادث صغير في باب الاضطهاد الفكري من الدولة أو من الشعب، لا ظاهراً ولا مستوراً بستر من سياسة أو دين كما وقع في غيره. والغريب أننا نجد ابن الخطيب في ريحانة الكتاب يحليه تحلية منصفة فلا ينبزه بشيء من هذه القالة السوء، ويتأسف على كونه لم يلقه حين قدومه لغرناطة، ودونك قوله بالنص الكامل:

مورد ترده الهِيمُ فتروَى، وتهوى إليه النفوس فتجد عنده ما تهوَى. وصدر لا يخفى مكانه، وذخر أضاعه زمانه، حاز من كل فن نصيباً، ورقى إلى كل غرض سهماً مصيباً، واستمطر كل عارض وديمة، من العلوم الحديثة والقديمة. فبرع في فنونها وبهر، وحذق الطب منها ومهر، وبلغ في صنعة النبات، درجة الإثبات، ورضي بالانتماء إلى العلم والانتساب، عن الاكتساب. فما أهمه الدهر بألوانه، ولا ثناهُ عن شأنه. وعانى في حركته وانتقاله، مشقة اعتقاله، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله، وهو الآن من كتاب ملوك المغرب تطوى عليه الخناصر إذا عُدُّوا، وتذخر له قصب السبق إذا حضروا في المحاضرة واستدوا. . ورد على الحضرة في خدمة لبعض الولاة. . . فرأيته رؤية لم تنهض إلى المحاورة والكلام، والمخاطبة بما يجب أمثلة من الأعلام، لخمود هذا الباعث عندي في العهد المتقدم، ولم ألبث أن عضضت يد المتندم أسفاً على ما ضاع من لقائه واجتلاء الفوائد من تلقائه، وله شعر تهوى الشعرى أن تتخذه شنفاً ونثر تود النثرة لو تتحلى به وإن شمخت آنفاً».

ففي هذه النبذة من كلام ابن الخطيب إنصاف كبير للرجل الذي لمزه في كلامه السابق، واعتراف بسبقه وفضله في الوقت الذي كان قائله لم ينتبه بعد إلى العناية بهذه الشؤون حتى أنه لم يسعه إلا التأسف على ما فاته من مداخلته والاستفادة منه.

ومما نستخلصه من هذه النبذة أن المترجم امتحن بالاعتقال، وهو أمر لم يذكره أحد ممن وقفنا على كلامه فيه، وأنه لما قدم إلى غرناطة كان كاتباً لأحد الولاة، فذلك يعني أنه سبق أن عمل كاتباً خصوصياً قبل أن يصل إلى البلاط الملكي.

والفائدة المهمة التي تحتويها هذه النبذة من كلام ابن الخطيب، أن مترجمنا كان يتحلّى بسمة أهل العلم ويترفع عن حشر نفسه في زُمرة الأدباء المتكسبين بأدبهم، ولذلك لا نرى له أمداحاً في رجال الدولة، وناهيك بها، ولعلهم لذلك كانوا يميلون عنه.

وإذا كانت الناحية العلمية منه قد عميت علينا أنباؤها، فالناحية الأدبية يمكن أن نتتبع آثارها، ونستخرج أخبارها من بعض عبارات كبار الأدباء فيه، وبعض أقواله الواصلة إلينا، برغم قِلّتها، فإنها تدل على كِبَر نفْسه، وعُلُو نفَسه، وما ظنك بمن ترأس ديوان الكتاب في عهد بني مرين، في أيام النخبة الصالحة من ملوكهم، وقد كانوا محاطين بكبار رجال العلم والأدب من أهل الأندلس وإفريقية والمغرب؟ وابن الخطيب على نيله منه في الإحاطة، لم يستطع أن يتجاهل مكانته الأدبية، فاعترف أنه كان مشاركاً في الفنون، وخصوصاً في علم الأدب حافظاً للشعر ذاكراً له، وأن له شعراً رائقاً وكتابة حسنة وخطاً ظريفاً وأما في الريحانة فقد وفاه حقه، ولم يملك إلا أن يظهر غاية الإعجاب به.

ويقول ابن خلدون في التعريف بعد العبارة السابقة له عن معارف هذا الأديب: «وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين وكانت له الإمامة في نقد الشعر والبصر به»، ويكفينا هذا على ما ننسبه لأدبائنا، والمترجم منهم، من التفوق على كثير من أدباء الأقطار التي ربما ينكر أهلها الأدب على أهل المغرب، فإن شهادة ابن خلدون هذه لفرد من أفراد أدباء المغرب لها قيمتها العظيمة، لا سيما وهو لا يتحفظ في شيء كتحفظه في هذا الباب.

على أنه ما يمنع أن يكون الجزنائي إماماً في نقد الشعر، وقد كان يحفظ

منه عشرين ألف بيت للمحدثين فقط، كما في الإحاطة، فلا جرم أننا بإزاء أديب كبير ونقادة إمام، وإنما حوادث الأيام والظروف التي لاقى فيها حتفه بالطاعون العام في تونس مُغَرَّباً عن أهله وبلده هي التي قضت على آثاره بالضياع، ولم يبق منها إلا ما أفلت من التلف برغم أنف الدهر.

وهذا مثال من نقده، تعرف به سلامة ذوقه، ومتانة أسلوبه، قال أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية، فيما حكاه عنه ابن خلدون في المقدمة:

«ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان المريني وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي، ولم أنسبها إليه، وهو هذا:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ... ما الفرق بين قديمها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ قال: من قوله ما الفرق، إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب».

ومما يدل على أريحيته الأدبية أنه كان تَسرَّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجواري وأحسنهن، فأدبها حتى لقِنَتْ حظاً من العربية ونظمت الشعر، وكان شديد الغرام بها، فهلكت أشد ما كان حبالها وامتداد أمالٍ فيها، فكان بعد وفاتها لا يرى إلا في تأوه دائم وأسف متماد كما يقول ابن الخطيب، ففتحت له هذه الحادثة باب القول العاطفي، فصدرت عنه بدائع

في رثاء محبوبته ومناجاتها وصفة محاسنها، تشدُّ بلابل الصدور وتَهِيج أشجان القلوب، فمن ذلك قوله:

يا قبر صبح حلَّ فيك ... لِمُهجتي أسنَى الأماني
وغدوت بعد عيانها ... أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المنية أنها ... تنئى مكانك عن مكاني
كم بين مقبور بفا ... س وقابس بالقيروان

وقوله:

يا صاحبَ القبر الذي أعلامُه ... درَست ولكنْ حبُّه لم يدرُس
ما اليأسُ منك على التصبُّر حاملي ... أيأستني فكأنَّني لم أيأسِ
لما ذهبت بِكل حُسن أصبحت ... نفسي تعاني شَجْوَ كلِّ الأنفُس
يا صبح أيامي ليالٍ كلُّها ... لا تنجلي عن صُبْحك المتنفِّس

وله فيها أيضاً:

يا نازحاً في الضمير ما بَرحا ... داني محلِّ الهوى وإن نزَحا
لم تُضْمِر الصبرَ عنك جارحةٌ ... ولا فؤادي لسلوة جنَحا
مُستعبر المُزْن فيك أدمعُه ... يظل يبكيك كلما سفحا
ولا أرى البرق عاد مبتسماً ... بعدك بل زَند شوقه قدَحا
وما تغنى الحمامُ من طرب ... بل يعلن النَّوح كلما صدَحا

وفي هذه الأبيات خيال جميل أضفى عليها جوّاً من الشاعرية التي

أشركت الطبيعة ومظاهرها في الإحساس بعواطف الشاعر والتأثر بمواجده، فالسحاب إنما تهمي أدمعه بكاء على هذا الحبيب المفارق، والبرق ولمعانه ليس كما يحسبه غيره من الشعراء ابتساماً وتنويراً، وإنما هو اشتعال زند شوقه عند القدح وانبعاث شرارته، وكذلك الحمام وهديله إنما هو نواح على فقد الحبيب لا غناء كما يظن. وإذا بلغت الرؤية الشعرية هذا الحد من التطلع والاستشراف الذي وصفه شاعرنا، فإنها تكون قد خرقت الحجب والأستار ونفذت إلى آفاق الشاعرية ومجالاتها اللامحدودة ومن قوله الذي جارى به الفحول في موضوع النَّسيب:

أعلِمتَ ما صنع الفراق ... غداة جدَّ به الرفاق

ووقفت منهم حيث للنـ ... ـظرات والدمع اتّساق

سبقت مطاياهم فما ... أبطأ بنفسك في السباق

أأطقتَ حمل صدودهم ... البَيْنُ خطب لا يُطاق

عَن ذات عِرْق اصعدوا ... أتقولُ دارُهم العِراق

ما ضرهم وهم المنى ... لو وافقوا بعضَ الوفاق

وتيامنوا عُسْفان أن ... يقِفُوا لِمُجتمع الرفاق

قالوا تفرُّقُنا غداً ... فشُغِلت عن وعد التلاق

عمداً رأوا قتْلَ العَميـ ... ـد فكان عيشُك في نفَاق

أوْلَى بجسمك أن يَر ... قَّ ودمْعِ عينيك أن يُراق

أما الفؤاد فعندهم ... دَعْه ودعوى الاشتياق

اعْتادَ حُبٌّ محلهم ... فرحيبُ صدرك عنه ضَاق

واهـاً لـسـالـفـة الـشّـهـا ... ب مـضَـتْ بـأيـامِـي الـرِّقـاق
أبـقـت حـرارةَ لـوعـةٍ ... بـين الـتَّرائـب والـتَّراقـى
لا تَـنْـطفـي وورُودهـا ... مـن أدْمُـعـي كـأسٌ دِهـاق

وقـال أيضـاً :

يـا مُـوحِشي والبعـدُ دون لِقـائـه ... أدْعُـوك عـن شَحْط وإن لم تـسمـع
يُـدنيـك مني الـشـوقُ حتى أنـني ... لأراك رأْيَ الـعـين لـولا أدْمُـعِى
وأحـنُّ شـوقـاً لـلنسيـم إذا سرى ... بحـديثكم وأُصِيـخُ كـالمستـطِيع
كـان اللقـاء فكـان حـظي نـاظـري ... وسـطا الفراق فصـار حـظي مَسْمعى
فـابعَثْ خيـالَـك تَهْـدِه نـارُ الحشا ... إن كـان يجهـل من مقـامي مـوضعى

وهذه القطعة لا تقل عن القطع السابقـة في غرابـة معانيهـا وبداعـة صورها ومنزعها الفلسفي فهي مثلها من الشعر الفريد في هـذا الباب ومن شعره أيضاً في النسيب :

دارُ الهـوى نـجـدٌ وسـاكِـنُهـا ... أقصى أمـاني الـنـفس مـن نـجـد
هـل بـاكـر الـوَسْمِيُّ سـاحتَهـا ... واسْـتَـنَّ في قِـيـعـانها الجُـرد
أوبـات مُـعـتَـلُّ الـنـسـيم بهـا ... مُـستـشـفـيـاً بِـالْـبـان والـرَّنـد
يـتـلـو أحـاديـثَ الـذيـن هـمُ ... قصـدي وإن جـارُوا عن الـقَصـد
أيـامَ سُـمْـرُ ظـلالهـا وطـني ... مـنهـا وزُرْقُ مـيـاهـهـا وِرْدى
ومَـطارح الـنـظرات في رَشـأ ... أحـوى المـدامـع أهيـفِ الـقـد
يـرنـو إلـيـك بـعـين جـازيـة ... قُـتِـل المحـب بهـا عـلى عـمـد

حتى أجدَّ بهم على عجَلٍ ... ريبُ الخطوب وعاثِرُ الجَد

فُقدوا فما وأبِيك بعدهم ... عيْشي شفَا إلا على الفقد

وغدوا دَفيناً قد تضمَّنه ... بطنُ الثرى وقرارةُ اللحد

ومُشرَّداً من دون رؤيتِه ... قذَفُ النوى وتَنُوفَةُ البعد

أجرى عليَّ العيشُ بعدهم ... أنّي جرَعتُ حميمَهم وجدى

لا تَلْحني يا صاحِ في شجَن ... أخْفَيْتُ منه فوق ما أُبدى

بالغرب لي سكن يُؤَرِّبُني ... من ذكره سُهْدٌ على سهد

فَرْخان قد تُركا بمَضْيَعةٍ ... زُويتْ عن الّرفداء والرِّفد

وهذه القصيدة مما خاطب به الفقيه العالم أبا جعفر بن رضوان يسأله عن شيء من علم صناعة الكيمياء، ولم يذكر ابن خلدون منها إلا هذا القدر وأما ابن الخطيب فقد اقتصر منها على البيت الأول.

وخاطبه أيضاً وقد نشأت بينهما فيما يقول ابن الخطيب صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة يتشوق إلى جهة كانوا يحلون بها للشيخ فيها ضَيْعةٌ بخارج مالَقة:

رعى الله وادي شَنْبانَةٍ ... وتلك الغدايا وتلك الليال

ومسرَحنا بين خُضْرِ الغصون ... ووَدْق المِياه وسِحْر الظلال

ومرتَعنا تحت أوداجه ... ومَكْرعَنا في النَّمير الزُّلال

نشاهد منها كعُرض الحُسام ... إذا ما انتشت فوقه كالعوال

ولله من دُرّ حَصْبائه ... لآل وأحسن بها من لآل

وبُلْبُلة في ستور الغُصون ... كخَوْدٍ ترنَّمُ فوق الحِجال
وأسماره كيف رقَّت شذاً ... وصحَّ النسيمُ بها في اعتلال
ولله منك أبا جعفر ... عَميد الجَلال حَميد الخِصال
تُطارحُني برمُوز الكنوز ... وتُسْفِر لي عن معاني المَعال
فألقطُ مِن فِيك سحر البيان ... مُجيباً به عن عَويص السؤال

وله وهو مليح الإشارة والتلميح :

أيُجمَع هذا الشملُ بعد شتاته ... ويُوصَلُ هذا الحبْل بعد انْبتاته
أما الليالي آيةٌ عِيسَوِيةٌ ... فتنشُرَ ميْتَ الأنْسِ بعد مماته
وتُورد عيني بعد مِلْح مَدامِعي ... برؤيته في عذْبِه وفُراته

وله واستعمل فيه أنواعاً من البديع : فهو من شِعْر الصناعة لا غير:

يا رب ظبي شعارُه نُسْك ... ألحاظُه في الورى لها فتك
يترك من هام فيه مكتئباً ... لا تعجبوا إن قومَه التُّرك
أشكو له ما لقيت من حرق ... فينثني لاهياً إذا أشكُو
صبرت حتى اطللَّ عارِضُه ... فكان صبح ختامه مسك

وله من هذا المنزع :

يا من توعَّدني بحادث هجْره ... إن السلو لَدُون ما تتوعَّد
هذا عِذارُك وهْو موعدُ سلْوتي ... فاكْفُفْ فقد سبق الوعيد المَوْعِد
وأظن سلوتنا غداً أو بعدَه ... (وبذاك خَبَّرنا الغُراب الأسود)

وقال في ضده:

قـال العَـزُولُ تنقُّصـاً لِجمالـه   هـذا حبيبـك قـد أطـل عِـذارُه
لا بـل بـدا فصْـلُ الربيـع بِخَـده   فَـلِذا تـسـاوَى لـيـلُه ونهارُه

وله في التورية بأسماء الكتب:

ومُـولَـع بـالكُتْـب يبتـاعُـهـا   بـأرخص الـسَّـوْم وأغْـلاه
في نصف الاستذكـار أعـطيتُـهُ   (مُـلخَّص الـعـين) فـأرضـاه

ومن شعره هذه القصيدة الأعرابية المعنى والأسلوب، يشكو الزمان ويصف ريبه ويفتخر، وهي مما أنشده له ابن الأحمر، في نثر فرائده الجمان، وقد دخلها كثير من التصحيف صححنا غالِبه:

أحـارِ سَـلِ العتبى فلستُ بعـاتب   حنانَيْك إن الـدهـر أخبثُ صـاحب
عَجِبْتُ من الأيـام أنَّي أِلفتهـا[1]   مُسـالمة الأيـام إحـدى العجـائب
عـرفت الليـالي قبل عـرفـاني النُّهى   وقـد أخلدت قِلْداً ومـا طـرَّ شـاربي
ولابست حـاليْها مـع الكُرْه والـرضى   وقـد شاب رأسي وهي سـود الذوائب
ومـارست أبنـاء الـزمـان فلم أجـد   أخـائِفـة يـا حـار، غـير التجـارب
مُـليُّـون بـالـبـغـضـاء إلا تمـلُّقـاً   ومـا هـو الامثـل إبْسـاس حـالب
يـضيق بهـا رحْبُ الـفـضـاء وإنها   لَجـائِمـةٌ بـين الحشـا والـترائـب

---

(١) في الأصل: إني ألفتها لنا.

إذا ذكرتْ ملقى عصاها من العُلَى[1] ... ترامت إليه دُون ذكر العواقب
فإن تسألوا صعب الشكيمة ماضياً ... فحيَّهلًا بِي أو بسعد بن ناشب[2]
وسعت الليالي عفة وقناعة ... وقد ضِقْن ذرعاً عن تَسنِّي مآربي
وقضيتها خمساً وعشرين حجة ... أصدق ظني بالأماني الكواذب
فما لي وللأوطان هلْ يُطلب الجَدا ... من القَطر إلا كائِناً في السحائب
وما كنتُ أرضى أن أُقيم بذِلَّة ... فكيف وما سُدَّت عليَّ مذاهبي
وما يَطَّبِيني أين نِيطَت تمائمي ... عليَّ فأوطاني ظُهورُ الركائب
فإن محَّ[3] عن فوْدَى جونُ شبيبتي ... فلا محَّ[3] من عطفَيّ جونُ الغياهب
ستألَفُ منِّي البِيدُ طَلَّاحَ أنجُدٍ ... قَليل هُموم النفس جَمَّ المطالب
وشَيْحان[4] لا تثني المهابةُ عزْمَهُ ... يخُوض غِمارات الرَّدى غير هائب
حليف سُرًى لا يسأمُ البِيدَ والسُّرى ... طَوالَ الليالي في عِراض السباسب
أُزَجِّي بها من عزمتي مُتوقِّداً ... فأحسُبني بعضَ النجوم الثواقب
حثيثاً ونُزْعان النجوم كأنما ... تسابقني من خشية المغارب
تَقدَّمْني حتى أقول شمائلي ... وأقدمُها حتى أقول جنائبي
بِمُنْخَرقٍ يثني العيون كَلِيلةً ... طَرُوح النَّوى جمّ السرى غير لاحب

---

(١) في الأصل: الحلى.
(٢) بالأصل: قاضياً وسعد هذا من شعراء الحماسة الشجعان الفتاك.
(٣) محّ، زال ودثر وفي الأصل: صح.
(٤) في الأصل: وشيْخان.

كـأن جنىً الـظلماء فيـه ابـنُ دايَـةٍ   لأمْنِ فـراق البِيـد ليس بنَـاعِب[1]

تخـال بـه زُهْـر الكـواكب جُـثَّـماً   وتحسب فيـه الـبَرْق نـارَ الحُبـاحِب

فـلا جَهْوري[2] الـرعـد فيـه بنـابِس   من الـرُّعب الامثـلَ صرٍّ الجنـادب

ولا نـاجـم إلَّا قـتـادٌ كـأنـه   بَـرائِنُ أُسْـد أو حُمـات عـقـارب

وفي شُـعَب الأكـوار شُـعْثٌ كـأنـني   بهـم في ذُرى دَوّ سُـلَيْـك المَقَـانـب

إذا اعتكـر الليـل البـهيم تنَـوَّرُوا   إضـاءةَ مشقُـوق العقيقـة قـاضِب

ألاَ عَـلِمَتْ سُبْـل المعـالي بـأنـني   سرِيْتُ إليهـا حـين كَـلَّ مُصـاحِبي

مـعَ الليـل إلَّا بـارِقـاً[3] مُتَنـوراً   كطَرْفة[4] جفْن أو كَرْمْأة[5] صـاحب

وبـين جفـوني والكـرى فيه جـازِمٌ   بِهَمّ عـلى خفْض من العيش ناصِب

فـإن ثاب نَحْـوي مـوْهِنـاً قَعْقعَت لـه   خُـطًى من شِنَان[6] كـالقِسيِّ لـواعب

قـد اصْـطَلَمَتْهـا[7] البِيدُ إلا بقيـةً   وكـانت مُنِيفَـاتِ الـذُّرى والغـوارب

ألا يـا اسْلمى يـا نـاقُ ثم تقـدمي   بنـا تَصْدُري بـالرفـد مَلأى الحقـائب

فـلي أمـل في آل فِهْـر[8] بن مـالـك   خَـلا ان حُـبِّي في لُـؤَيّ بن غـالـب

---

(١) في الأصل: بناهب.
(٢) في الأصل: جوهري.
(٣) في الأصل: فارقا.
(٤) في الأصل: لطرفة.
(٥) في الأصل: كمواة.
(٦) في الأصل: شان.
(٧) في الأصل: اصطلبتها.
(٨) في الأصل: فهم.

وما أظنني بحاجة إلى التنبيه على ما في هذه القصيدة من معان وأخْيِلة تعكس قوةَ نفَس صاحبها وشدةَ أسْره حتى ليبدو لنا كأنه أحد شعراء العرب وفرسانها المتقدمين، جزالةَ اللفظ ومتَانـةَ أسلوب، وشجاعـةً وإقداماً وبَأْواً وفخْراً، وقد كان نظمه لها وهـو ابن ٢٥ سنة أعني في فَـوْرة الشباب وشِرّة الطموح، فلا غرابة إن قال ابن الأحمر عنه إنه لو كان من الأعراب لَعُدَّ في شعرائها وأمراء كلامها، وقال ابن خلدون فيه وله شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين. ولكن يا للأسف مما دخل هذه القصيدة من التحريف في أصلها الوحيد الموجود بيدنا حتى الآن، ولئن كنا قد قومنا أكثره فقد بقي منها بعض الأبيات مغلق العبارة غامض المعنى، على أن روائع أبياتها وهي كثيرة تغطى على هذا البعض الذي لم نهتد إلى صوابه.

هذا ما وقفنا عليه من شعر المترجم وجملة الرأي فيه. وأما نثره وهـو كاتب الملوك بل رئيس الكتاب في البلاط المريني، فإننا لم نقف منه إلا على رسالة من قَبيل الإخوانيات أوردها ابنُ الأحمر مصدَّرةً بالأبيات العينية السابقة الذكر، ويظهر أنه كتبها إلى أحد خُلَصائه من أهل الأدب وهي مُحرَّرة بطريقة السجع وفيها بعض التَّكلف مما يجعلنا نظن أنه في الشعر أطبع منه في النثر، ولكن الحكم على نثْره بإطلاق من رسالة واحدة لا يصح، لا سيما وأصلها الوحيد الذي بأيدينا مليء بالتصحيف، ونحن نذكرها على ما بها مستظهرين ما نعتقده صواباً في بعض عباراتها.

قال ابن الأحمر: (ومن كَتْبه البارع):

يـا مُـوحِشي والبُعْـد دون لقـائـه أدعـوك عَـنْ شَحْط وإن لم تـسـمـع

يُـدنيـك مني الـشـوقُ حـتى أنـني ... لأراكَ رأْيَ الـعَـيـنْ لـولا أدمُـعـي

وأحـن شـوقـاً لـلنسـيم إذا سرى ... بحـديثكم وأضيـخ كـالمستـطلع

كـان اللقـاء فكـان حـظي نـاظـري ... وأتى الفـراق فصـار حـظي مَسمعي

فـابعث خيـالـك تَهْـدِه نـارُ الحشـا ... إن كـان يجهـل من مقـامي ومـوضعي

واصحَبْـه من نَـوْمِي بتَحفـة قـادم ... فمُـنذ استقَـلَّ ركـابكم[١] لم أهْجَـع

كيـما أُطـارحـه حـديثَ صَبـابتي ... وتُـصـدِّق البـلْوى مقـال المـدَّعـى

مـوقُـوف آمـالٍ ومُسنَـد لـوْعـة ... وبـلاغ أشـواق ومـرسـل أدمـع[١]

قد كان حنيني إلى سيدي أطال الله بقاءَه، وسنَّى لقاءه، موصولاً مع الاتصال، دائماً مع البُكَر والآصال، لا تلْحَقهُ فترة فاضل فيها عن هديه[٣] الْواضح الأمم، واظلّ[٤] فيها من سواه عاكِفاً على صنَم، ومنظرُ العيش أنِيق، وغصن الشيبة وَرِيق، والدهر جَمَع ولم يُحسن التفريق، ومِسْك العِذار تحت ختامه، وماء الشباب في عُوده لم[تغـض]ِ العين بانسجامه، والدار حرية مما تهوى الأنفس، واليد ملية بنُضار العقار تصرفه في لُجَيْن الأكؤُس، وشَمْلُنا المنتظم عِقْد على لَبَّة الزمان ولَياليناً في مُقْلته كُحْل وفي وجنتيه خِيلَان، فكيف وقد عاد الدهرُ بِجَوْره وسطاه، فشَتَّ عِقْد شَمْلنا وأذْهَب وُسْطاه، وأرانا من حَدَثانه

---

(١) في الأصل: فمدا استقل ردي بكم.

(٢) يلاحظ اقتباس ألقاب الحديث في هذا البيت والقطعة بعد البيت الخامس دخلتها الصنعة فلذلك اقتصر أبي الخطيب على إيراد ما قبل هذا البيت فقط.

(٣) في الأصل: عن هذه.

(٤) في الأصل: واضل.

عجَباً، فبُرْدُ[1] مُزيقْياء، وشمْلُ الأحباب أيدى سَبأ، فهل كان إلا مِثْل ظل القناة[2] طُولاً، هزَّته أريحية الشباب فالتقى طرفاه، وكصفح الحُسام صقيلاً، فانقلب بصفحه حرفاه، ورمانا الفراق مراميا، وسِرْنا شآما[3] فانفردتُ يمانيا، حتى لا نلتقي إلا بالفِكْر[4] ولا نجتمع إلا في الذكر، اللهم إلا طيف الخيال كالبدر المتوهم، والليل في شِيَة الجواد الأوْهم، قد نظَم الكواكب بِجيده عِقْداً، والتحف الظلماءَ بُرداً، فكتمت منه صُبْحاً مُسفِراً وسرى عرفُه في سوادها فكانت مِسْكاً أدفراً، واعْتَسف المسافة الزيزاء، والأفقُ مُتَّشِح بصارم الفجْر، والجو مُعتقِلٌ عصا الجوزاء، والرامح قد أشرع سِنَانه فخفق قلب الأسد ذُعراً، وجرى دمع الغُمَيْصاء على العَبُور فكلفت به المَجَرَّةُ نَهراً، وذهبت تستبق الكواكبُ للمغارب، فجاء الفجر على قميص الليل بدم كذب فقيل فجر كاذِب، وافَى فكان من تباشير الصباح، والنوم مُتخبِّط في حبائل الأجفان يجاذبها وقد علق الجناح، اعتياداً لطروقه مثْواه، لا عياذاً لِمشُوقِه من بلواه، وقد طبع في طِينة القلب، واعتورته نار الحُب، فأقام ماثِلاً بين الجوانح لا تطفيه[5] الأنفاس العواطف ولا الدموع السوافح، لا ينزل به طارق السلُوّ وإن كان محل كريم، ولا يقوم فيه رسول العَذْل وإن كان فترة بين طُوفان نوح ونار إبراهيم، ولو شاء لكان بَرْداً وسلاماً، بِرَدّ السلام، أو هبَّة

---

(١) في الأصل: برد.

(٢) في الأصل: الفتاة.

(٣) في الأصل: وصرتا سياماً.

(٤) في الأصل: بالكفر.

(٥) في الأصل: لا تعفيه.

شمال، وبرود الليل أَسْمال، بليلة الجناح، عليلة تُنعِش الأرواح، كليلة المسرى، قد تطوفت معاهد حسَّان بين جِلّق وبُصْرى، وبثَّت[1] لبُثَيْنة حالَ جَميل، وجالت بالْحِمى فأذكرت إذْ ضراً وجَليل[2] وقضَتْ لقَيْس من لُبْناه لُبانَة، فخلع عليها لقد كان فيها للأمانة، وألَمَّتْ بالخمائل إلماماً، فمنحت الغصون اعتناقاً والأزهار التثاماً، وأطارت السجف عن الخُدود بالسُّدَف عن البدور، فالْتَمس الصحبُ تلك الغِرَّة، فاختلس فيها نظرة، حتى خلَصتْ إلى مثواي، وما تخلَّصتُ من بلواي، فظننتني من خوافيها نُسالاً، فقلَّبتني في الشمال يميناً وشِمالاً، فلما تنَسَّمتُ نَثْرك في طيّها، وتوسَّمْتُ بِشْرك من حُليّها، قلتُ أسَعيدية فأسْعِدي، إني لأجِد ريحه لولا أن تُفَندى، وإلا فما عطَّر شذاك، اصدُقي، فقالت هو ذاك، فقلت لها بعد الترحيب والتحية، ما حال تلك الشِيَم المرضية، التي لو كانت نسيماً لكانت الصَّبا، أو عُصُراً لكانت أيامَ الصِّبا، قالت كالزَّهر أشْرقَه النَّدى بمائه، والأقحوان غداةَ غِبِّ سمائه، قلتُ فالهمم العالية لا تبصر العليا اختلاساً[3] ولا تدركها التماساً[4]، قالت ما كنتُ أقْفُو ما ليس لي به عِلْم، فما لي ولأُخيَات النجم؟ فمن لي بالمجَرَّة أوافِيها، فاعْلم مَن فِيها، فاسأل الكواكب عن عِدادها، فأنت حِلْف سِدادها قلت فما حالُ ذلك الكمال والسيادة، قالت الحُسْنُ[5] والزيادة، قلت جُعلت

---

(١) في الأصل: وتبتت.

(٢) تلميح لقول بلال: الا ليت شعري هل أبيت ليلة، بواد وحولي إذ ضر وجليل/ البيتين.

(٣) اختلاسها، التماسها.

(٤) في الأصل: حالك الكمال.

(٥) في الأصل: بالحسن.

فِداك، إنك خالَطْت سقياً [1] فأعداك، فجئت سَمُوماً وستعودين نَسِيماً، لِمَنْ أهداك، فينكر سُماك[2]، ويقول ما وراءك، وأين خلعت رداءك، فقُولي حلى يعقوب هوَاك، الذي لا يفتر عن ذكراك المستشعر مع يأس السلُوّ عنك، رجاءَ الدنُو منك، والسلام الكريم، يخص ذلك الحسب الصميم، رحمة الله وبركاته.

انتهت ـ وما كادت ـ وهي كما ترى من النثر المسجوع أو الفني كما سمي حديثاً، تشتمل على فِقَر عالية في الحسن والرونق والرصف والتنسيق، وفيها فِقَر أخرى يظهر عليها التكلف وتحتاج إلى بعض التوجيه، على أن نصها الكامل بعد التقويم الشامل، لا يستغنى عن الشرح والبيان. وخاصة للشُداة من أهل الطلب وناشئة الأدب، وهي على كل حال إن دلت على براعته فلن تكون وحدَها نَمُوذَج إنشائه وأسلوبه في الكتابة الذي يحكم به عليه، كيف ونحن لم نطلع على شيء من كتابته الديوانية التي كانت أكثر أعماله؟.

هذا وبعد أن ذكر ابن الخطيب دخوله إلى غرناطة في أيام السابع من ملوكها لقُرْبِهِ من ولايته في بعض شؤونه كما قال، وحقق بها بعض الأغراض التي تتعلق بمهنته الطبِّيَّة، ذكر أنه توفى رحمه الله بتونس في يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وسبقت الإشارة إلى أنه كان في صحبة السلطان أبي الحسن المريني وأن وفاته كانت بالطاعون الجارف الذي عم البلاد في تلك المدة.

---

(١) فالأصل مستقيماً.

(٢) في الأصل: سماءك وهي سماك بالضم كما نرجح.

ومن الحكايات المروية عن ابن شاطر الجمحي المراكشي المعروف بنكته ونوادره أنه دخل الأندلس ومر يوماً بابن العباس بن شعيب الكاتب صاحبنا وهو جالس في جامع الجزيرة، وقد ذهب به الفكر، فصاح به: انظر إلى مركب عزرائيل قد رفع شراعه يعني بعزرائيل ملك الموت على ما هو شائع بين الناس، ولله في خلقه شؤون.


ابن هانئ الأندلسي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٣٠١ - ٣٩٢٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت ٨٦ ٧٩٢١٤ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكتالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



42

ابن هانئ السبتي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

هذه السلسلة في نظر الأستاذ المجاهد الحاج أحمد معنينو

الحمد لله، ولا يدوم إلا ملكه.

حضرة الأخ الأستاذ الخريت والأديب البارع الباحث المبدع سيدي عبد الله كنون مدير المعهد الخليفي بتطوان.

تحية الإسلام الخالدة وبعد، أمس حظيت بهديتكم الثمينة وفقد تسلمت من البريد المضمون الجزئين الممتازين من سلسلة كتابكم القيم «ذكريات مشاهير رجال المغرب» الجزء السابع وبه ترجمة العلامة الأديب الشهير ميمون الخطابي «سيدي الخباز»(١) دفين أحد أبواب سلا جوار العلامة القاضي الشهير أبي حاجة رحمهما الله وقد سبق لي أن قرأت لهذا الأديب قطعة شعرية بديعة نشرتها عنه «الحياة» التي سبقت أن صدرت بتطوان ووقفت على كلام حوله وأنه من آل الخطابي الذين إليهم يرجع نسب بطل الريف الأمير الجليل

---

(١) يعرف الشاعر أيضاً بابن خبازة وهي كنية لخاله ومن ثم أطلق عليه كما في هذه الكلمة سيدي الخباز. المؤلف.

المجاهد الشهير محمد عبد الكريم الخطابي فإلى هاته الأسرة الكـريمة ينتسب العلمان الشهيران أحدهما علم في العلم والطب والقريض والآخر في الجهاد والذود عن سيادة البلاد وكلاهما شخصيتان فريدتان في مجالهما.

وقد كشف الغيب أنهما من ذوي المكانة في الأدب وبطلان في ميـدان القلم والسيف أطال الله حياة الثاني وتغمد الأول برحمته وجزاكم خيراً عـما وفقتم إليه من إحياء نسبه وشعره وعلمه والكتاب الثاني ترجمة ابن المرحـل الأديب الشهير والشاعر المغربي الكبير وقد تصفحت كلا الجزءين وتعرفت على مجهوداتكم القيمة التي تبذلونها للحصول على معلومات كشفت النقاب عن شخصيات رفعوا رأس المغرب عالياً في الأدب والشعر والجهاد يحق للمغرب أن يفتخر بهم وإنه لمجهود مبارك موفق أعانكم الله على تتبعه حتى يظهر المغرب بعظمائه وما كان فيه من جهابذة أعلام وأدباء وعلماء وشعراء وكتاب خدموا اللغة العربية وشاركوا في ميدان الإنتاج الفكري والأدبي بما رفع الرأس وحلى الجيد بما هو أهله من النبوغ العلمي والسياسي والحربي وبذلك تضمحل شائعة المتقولين عليه من كونه شعباً بربرياً لم يعرف الأدب والفن وإنما عاش في خضم من المجازر.

تحياتي وتشكراتي لكم وللأهل وللأسرة وشهر رمضـان المعظم مبـارك سعيد.

ابن هانئ السبتي

علمه، أخلاقه، شيوخه، تلاميذه، تآليفه،
تطوعه للجهاد، استشهاده، غرابة منازعه،
أدبه، رسالة له، شعره.

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن هانىء اللخمي السبتي العالم النحوي اللغوي الأديب أحد مفاخر سبتة المعدودين جمع بين العلم والأدب ودرّس وألّف ونظم وكتب وخرج على يده الفطاحل من علماء العربية والنوابغ من الكتاب والشعراء أمثال أبي القاسم الشريف وأبي بكر بن شبرين وسواهما. وكان من أهل الدين المتين والاجتهاد في العبادة عالي الهمة سري الخلق من بيت كريم نبيل.

ذكره ابن الخطيب في الإكليل فقال: «علم تشير إليه الأكفّ، ويعمل إلى لقائه الحافر والخف، رفع للعربية ببلاده راية لا تتأخر، ومرج منها لجة تزخر، فانقسم مجال درسه، وأثمرت أدواخ غرسه، فركض ما شاء وبَرح، ودوّن وشرح، إلى شمائل يملك الطَّرف زِمامَها، ودعابة راشت الحلاوة سِهامها».

وترجمه في الإحاطة بقوله: «كان رحمه الله فريد دهره في سمو الهمة وإيثار الاقتصاد والتحلي بالقناعة وشموخ الآنف على أهل الرياسة مقتصراً على فائد

ربع له ببلده يتبلغ به، مع الصبر والعمل على حفظ المروءة وصون ماء الوجه، إماماً في علم العربية مُبرِّزاً متقدماً فيه حافظاً للأقوال مستوعباً لطريق الخلاف مستحضراً لحجج التوحيد لا يُشقّ في ذلك غباره، ريّانَ من الأدب، بارع الخط، سهل مَقادة الكلام، مشاركاً في الأصلين، قائماً على القراءات، كثير الاجتهاد والعكوف، مليح الخلق، ظاهر الخشوع، قريب الدمعة، كثير القناعة، بيته شهير الحسب والجلالة».

وناهيك بها من حِلى تنبىء عن رسوخ القدم في المعارف والفنون وبعد الشأو في المكارم والأخلاق وعلو الهمة والاعتزاز بالعلم.

ثم قال ابن الخطيب في الإحاطة: «قرأ على الأستاذ العلامة أبي إسحاق الغافقي وعلى الأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة واعتمد عليه وقرأ على الإمام الصالح أبي عبد الله بن حريث وألف كتباً منها شرح تسهيل الفوائد لابن مالك، وهو أجل كتبه، أبدع فيه ما شاء وتنافس الناس فيه، ومنها كتاب الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة ومنها كتاب إنشاد الضوال وإرشاد السؤال في لحن العامة وهو كتاب مفيد، وكتاب قوت المُقيم ودوّن ترسيل رئيس الكتاب أبي المُطرّف بن عُمَيرة وضمه في سفرين وله جزء في الفرائض مفيد وهو أرجوزة كما في نسخة أخرى من الإحاطة.

وأنت ترى أن هذه مجموعة من الكتب مهمة للغاية إلا أنها مع الأسف ما زالت مما لم يهتد إليه أحد ولا رفع عنه أنقاض الإهمال باحث[1]. والكتاب

---

(١) باستثناء ترسيل ابن عميرة، فإنه توجد بالخزانة العامة بالرباط مجموعتان منه غير تامتين، ويحتمل أن تكونا معاً أو إحداهما من عمل صاحبنا.

الثاني يلزم أن يكون طَلِبة كل مهتم بهذه الشؤون فإنه لا بد كاشف عن نواحي مجهولة من أدب المغرب والأندلس في جيل كامل من التاريخ. وفيما يظهر لنا أن ابن الخطيب وضع كتابه الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة على غِراره وذيلاً له وإن لم يصرح هو بذلك. ومما يؤسف له أشد الأسف أنه ورد في مجلة المجمع العلمي العربي بالمجلد الرابع عشر ذكر المؤلف وكتابه الثالث هكذا (لحن الفامة لابن بانىء محمد بن علي السبتي ٧٣٣) فلم يقتصر الأمر على جهل الكتاب بل تعداه إلى جهل مؤلفه أيضاً وهذا ـ كما نقول دائماً ـ مما يعود أكثر اللوم فيه علينا نحن الذين أهملنا تاريخ بلادنا ورجالنا وضيعنا مفاخر أسلافنا ومآثرهم حتى صرنا نكرة مجهولة بين الناس.

وكان ابن هانىء ممن حضر مع المتطوعة لما نازل المسلمون في مدة السلطان أبي الحسن المريني جبل الفتح (جبل طارق) وحاصروه لانتزاعه من يد العدو فأبلى في تلك الوقعة بلاءً حسناً وبعد سقوطه في أيديهم بثلاثة أيام أناخ عليه العدو أيضاً فاستشهد رحمه الله في أواخر قعدة عام ٧٣٣ هـ، أصيب بحجر المنجنيق في رأسه فمضى إلى الله تعالى طوع نيته، وصَحِبَتْهُ غَرابة المَنازع حتى في مَنِيَّته».

وحقاً فقد كان غريب المنازع ـ كما يقول ابن الخطيب ـ في علمه وأدبه وأخلاقه.

فأما في علمه فقد رأينا المنزع الذي نزعه في كتبه من التأليف في لحن العامة وشعراء عصره وغيرهما مما لا ينكر أحد أنه فريد في بابه غريب في مَنْحاه. وأما في أخلاقه فكذلك كان متميزاً برقة الطبع وخفة الروح مع قوة

الدين وصدق اليقين. وأما في أدبه فله منازع غـريبة تشهـد بذوقـه السليم ولا سيما نثره الفائق الذي تكاد ألفاظه تضيق عن معانيه، وتتنوع أساليبه ولو اتّحدتْ مقاصده، فهو من النثر القويّ مـادّة وروحاً القليـل النظير في إنتـاج الأدباء. وهاك نموذجاً منه هذه الرسالة التي أجاب بهـا أبا القـاسم الشريف وصدّرها بقصيدة مهموزة وكان أبو القاسم فاتحه بنظيرتها:

«هذا بني، وصل الله سبحانه لي ولك علو المقدار، وأجرى وِفْق أو فَوْق إرادتك وإرادتي جاريات الأقدار، ما سنح به الذهن الكليل واللسان الفليل، في مراجعة قصيدتك الغراء، الجالية السراء الآخذة بمجامع القلوب المـوفية بجوامع المطلوب، والحسنة المَهْيَع والأسلوب المتحلية بالحلى السَّنية، العريقـة المنتسَب في العُلى الحسنية الجـالية لصـدأ القلوب ران عليها الكسـل وخانها المَسْعِدَان السُّؤْل والأمل، فمتى حامت المعاني حولها، ولو أقامت حولها[1]، شكت ويلها وعَوْلها، وحرمت من فـريضة الفضيلة عـولها[2]، وعهـدي بها والزمان زمان، وأحكامها الماضية أماني مقضية وأمان، تتوارد ألاّفها، ويجمع إجماعها وخلافها، ويساعدها على الألفاظ كل سهل ممتنع، مفـترق مجتمع، مستأنس غريب، بعيد الغور قريب، فاضح الحلى، واضـح العلى، وضـاح الغُرَّة والجبين، رافع عمود الصبح المبين. أُيِّد من الفصاحة بأياد، فلم يحْفِل بصـاحبي طيء وإياد[3]، وكسي نصـاعـة البـلاغـة. فلم يعبـأ بهـمام وابن

(١) أي عامها.
(٢) العول في الإرث زيادة السهام على الفريضة فيدخل النقصان على الورثة بقدر حصصهم.
(٣) يعني أبا تمام وقيس بن ساعدة الأيادي.

المراغة[1]، شفاء المحزون، وعِلْم السِّر المخزون، ما بين منثوره والمـوزون.

والآن لا مَلْهَج ولا مَبْهَج، ولا مرشد ولا منهج، عكست القضايا فلم تنتج، فتبلد القلب الذكي، ولم يرشح القلم الـزكي، وعم الإفحام، وعَمَّ الإحجـام، وتمكن الأكداء والأجبـال[2]، وكورت الشمس وسـيرت الجبـال وعلت سآمـة، وغَلَبت ندامة وارتفعت ملامة، وقامت لنواعي الأدب قيامة حتى إذا ورد ذلك المُهْرق[3]، وفرع غصنه المورِق، تغنى به الحمام الأوْرق، وأحاط بعداد عُداتِه الغُصص والشَّرق، وأمن من الغصب والسرق، وأقبل الأمر وذهب لإقباله الفرَق، نفخ في صور أهل المنظوم والمنثور، بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وتراءت للأدب صُـور، وعمرت للبـلاغة كور[4]، وهمت للبراعة دِرر، ونظمت للبراعة دُرر، وعندما تبين أنك واحد حلبة البيان، والسابق في ذلك الميدان يوم الرِّهان، فكان لك القدم، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم، فوحق فصاحة ألفاظ أجدتها حين أوردتها، وأسلتها حين أرسلتها، وأزنتها[5] حين وزنتها، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها، وأرويتها حين رويتها، وأريتها وأصلتها حين فصلتها ووصلتها، ونظام جعلته يحسد البيان قلباً، وبمعصمه قلباً[6]، وهصرت حدائقه غلباً، وارتكبت رويه

---

(١) يقصد الفرزدق وجريراً.
(٢) الأكداء الحاجة، والأجبال تعذر القول على الشاعر.
(٣) المكتوب.
(٤) جمع كورة وهي القرية.
(٥) أي زينتها.
(٦) القلب بالضم السوار.

صعباً، ونثار أتبعت له خديماً، وصيرته لمدير كأسه نديماً، ولحفظ ذمامه المُدَامي أو مُدامة الذِّيامي مُديماً، لقد فتنتني حين أتتني، وسبتني حين صَبتني، فذهبت خفتها بوقاري، ولم يرعها بعد شيب عِذاري، بل دعت للتصابِي فقلت مرحباً، وحللت لفتنتها الحبا، ولم أحفل بشيْب وألفيت ما رَدَّ نِصابي نصيب [1]، وإن كنا فرسي رهان، وسابقي حلبة ميدان، غير أن الجلدة بيضاء، والمرجو الإغضاء بل الإرضاء.

بني، كيف رأيت للبيان هذا الطوع، والخروج فيه من نوع إلى نوع، وأين صفوان بن إدريس، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس، كم بين ثغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفريس، كما أني أعلم قطعاً علماً، وأحكم قضاء وأمضى حكماً، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة، وفريدتك الحالية الفائقة، المعارَضة بها قصيدته[2]، المتنسخة بها فريدته، لذهب عرضاً وطولاً، ثم اعتقد لك اليد الطولى، وأقر فارتفع النزاع، وذهبت لك تلك العُـلالات والأطماع، ونسي كلمته اللؤلؤية، ورجع عن دعواه الأدبية، واستغفر ربه عن تلك الإلية[3].

---

(١) نصيب شاعر أموي والإشارة إلى بيتيه اللذين يقول فيهما:

ولولا أن يقال صبا نصيب ... لقلت بنفسي النشا الصغار

بنفسي كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

(٢) قصيدة صفوان بن إدريس الهمزية شهيرة بين أدباء المغرب ومطلعها:

جاد الربى من بانة الجرعاء ... نوءان من دمعي وغيم سماء

هي التي عارضها الشريف السبتي بقصيدة مدح بها المترجم، وبعثها إليه مع نثر أجاب عنهما ابن هانىء بهذه الرسالة وقصيدة مماثلة، وقد أثبتنا أطرافاً منها في المتن.

(٣) أي الحلف.

بـني، وهذا من ذلك، من الجري في تلك المسالك، والتبسط في تلك المآخذ والمتارك. أينزع غيري هذا المنزع، أم المرء بشعره وابنه مولع[1] حيا الله الأدب وبنيه، وأعاد هلينا من أيامه وسِنِيه، ما أعلى منازعه، وأكبر مُنازعه، وأجل مأخذه، وأجهل تاركه، وأعلم آخذه، وأرق طباعه، وأحق أشياعـه وأتباعه، وأبعد طريقه، وأسعد فريقه، وأقوم نهجه، وأوثق نسْجه، وأسمح ألفاظه[2]، وأفصح عكاظه، وأصدق معانيه وألفاظه، وأحمد نظامه ونثاره، وأغنى شعاره ودثاره فعائبه مطرود، وعاتبه مصفود، وجاهله محصود، وعالمه محسود، غير أن الإحسان فيه قليل ولطريق الإصابة فيه عَلم ودليل، من ظفِر بها وصل، وعلى الغاية القصوى منه حصل، ومن نكب عن الطريق، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق، فليهنك أيها الابن الذكي، البر الزكي، الحبيب الحفي، الصفي الوفي، أنك حامل رايته، وواصل غايته، ليس أولـوه وآخروه لـك بمنكرين، ﴿**ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾.

ولـولا أن يطول الكتاب، وينحرف الشعراء والكتّاب، لفاضت ينابيع الفضل فيضاً، وخرجت إلى نوع من البلاغة أيضـاً، قرَّت عيـونُ أوِدَّائك، وملئت غيظاً صدور أعدائك، وَرَقِيت دَرَج الآمـال، ورقيت عين الكـمال، وحفظ منصبك العالي، بفضـل ربك الكبـير المتعالي والسـلام الأتم الأنَمّ، الأكمل الأعم، يخصك به من طال في مدحه إرْقَالُك وإغْذَاذُك، وراض روض

---

(١) إشارة إلى بيت أبي تمام:

ويسيء بـالإحسـان ظنـاً لا كمن — هـو بـابـنـه وبشعـره مفـتـون

(٢) كذا ولعل الصواب حفاظه، نظراً لأن ألفاظه أتت في السجعة الثالثة.

حمده وَابِلُك وطَلُّك ورذاذك، وَعادت[1] مصالح سعيه في سعي مصالحك، وسينفعك بحول الله وقوته، وفضله ومنّته معاذك، ووسمتَ نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك، ابن هانىء، ورحمة الله وبركاته».

وهـذه هي القصيدة التي أجاب بها مع الرسالة المذكورة تلميذه أبا القاسم الشريف:

يـا أوحـد الأدبـاء أو يـا أوحـد الـ	ـفـضـلاء أو يـا أوحـد الشرفـاء
من ذا تـراه أحق منـك إذا التـوت	طـرق الحجـاج بـأن يجيب نـدائي
أدب أرق مـن الهـواء وإن تـشـأ	فـمن الهـوا والمـاء والـصـهـبـاء
وألـذ مـن ظَلْم الحـبيـب وظُـلمِـه	بـالـظاء مـفتـوحـاً وضـم الـظاء
مـا السحـر إلا مـا تصـوغ بنـانـه	ولـسـانـه مـن حـليـة الإنشـاء
والـفضـل مـا حُلّيتَـه وحُـبِيتَـه	وحبـوتـني مـنـه بـخـير حـبـاء
أبكـار فكـرك قـد زففن بمـدحـة	تمشي روائـعـهـا عـلى اسـتحـيـاء
لا مـن قصـور بـل لـتقـصـير بهـا	مـن حيث لم يـظفـرن بـالأكفـاء
لكن جـبرن وقـد جبلن عـلى الـرضـا	فـالجـبر لـلأبـكـار، ولـلآبـاء
هـذا إلى الشرف الـذي قـد فـزت من	عـليـائـه بـالـعـزة الـقـعـسـاء
مـن رام رتبـتـك السنيـة فـليقـف	دون المـرام مـواقـف الإقـصـاء

ومنهـا:

---

(١) بالأصل وغدت ونرجح أنها تصحيف مما ذكرنا بدليل معاذك الواقعة في السجعة، وهذه الفقرة ساقطة من مخطوط الأسكوريال.

لله نفحــة سحـر مــا قــد شــدت لي ... مـن نفـث سحـرك في مُشـاد ثنـاء

عـارضت صفـوانـاً بها فـأريت ما ... يـستعـظم الـراوي لهـا والـرائي

لـوراء لـؤلـؤك المنـظم لم يـفـز ... مـن نـظم لـؤلـؤه بـغـير عـنـاء

بَـوّأتـني مـنهـا أجـلّ مُـبَـوَّءٍ ... فـلا خمصي مـسـتـوطىء الجـوزاء

وسما بها اسمي سـائراً فـأنـا بما ... أسـدَيْـتَ ذو الإسـماء في الأسـماء

وأشـدت ذكـري في البـلاد فـلي بهـا ... طـول الـثنـاء وإن أطـلت ثـوائـي

ولقـومي الفخـر المَشِيـدُ بَنَيْتَـه ... يـا حسن تـشـيـيـد وحسن بـنـاء

فليهن (هـانيهم) يـد بيضـاء مـا ... إن مثلهـا لـك مـن يـد بـيضـاء

حَـلَّيْتَ أبـيـاتـاً لـه لَخْـمِـيَّـة ... تُجْـلَى عـلى مُضَرِيـة غَـراء

فـليشـمخـوا آنـفـاً بما أوْلَيْتَـهُـم ... يـا محرز الآلاء بـالإيـلاء

ومن شعره ما راجع به أبا القاسم الشريف أيضاً قطعة بعثها إليه من نفس الوزن والروي:

لـولا مَشِيـت بفَـوْدي لـلفؤاد عصى ... أنْفَيْتُ في مَهْمَـهِ التَّشْبيب لي قُـلُصَـا

واستـوقفت غَـبراتي وهي جـاريـة ... وَكْفَـاء تُـوهم رَبْعـاً للحبيب قصـا

مسئـلاً عن لئـاليـه التي انـتهـزت ... أيـد الأمـاني بهـا مـا شئتـه فُـرَصـا

وكنت جـاريت فيها من جـرى طَلَقـاً ... مـن الإجـادة لم يَجْمَـح ولا نـكصـا

أصـاب شـاكلة المـرمي حـين رمى ... من الشـوارد مـا لـولاه مـا اقْتُنِصـا

ومن أعـد مكـان النبـل نبـل حجـا ... لم يـرض إلا بـأبكـار النهى قنصـا

ثم انثنى ثـانيـاً عـطف النسيب إلى ... مـدح به قـد غَلا مـا كـان قـد رَخُصـا

فــظَلْتُ أرْفُــل فيهــا لِبْسَــةً شرفت ذاتــاً ومنتسبــاً أعــزز بهــا قــمصــا
يقــول فيهـا وقــد خُــوِّلْت منحتهــا وجُـرْعُ الكاشـح المغري بها غُصصـا
فقلت هـلا عكست القـول منـك لـه ولم يكن قـابـلاً في مـدحـه الـرُّخصـا
وقلت ذي بِكــر فِكـر من أخي شرف يـردي ويرضي بهـا الحسـاد والخلصـا
لهــا حــلى حسنيــات عــلى حُلَلٍ حُسْنِيَّــة تستبي من حـلَّ أو شخصــا
خــولتهـا وقــد اعْـتزّت مــلابسهــا بـالبخت ينقاد لـلإنسـان مـا عـوصـا
خـــذهــا أبــا قــاسم مني نتيجــة ذي ود إذا شــيـب ود لــلورى خــلصــا
جــاءت تجـاوب عــما قـد بعثت بـــه إن كنت تـأخـذ من در النحـور حصى

ومن شعره في الفخر:

قــل للمـوالي عش بغبــطة حــامــد أو للمعــادي مت بضغنـة حــاســد
المــزن كـفــي والــثريــا همــتي وذكـاء ذكـري والسعـود مقـاصـدي

وقال في غير ذلك:

غنيت بي دون غـيري الدهـرُ عن مثـل بعضي لبعضيَ أضحى يضرب المثــلا
ظهــري انحنى لمشيب لاح واعجبـي غض إذا أيــنــعــت أزهــاره ذبــلا
أذاك أم زُهــر لاحــت تُـخَبِّرُ أن يـوم الصبـا والتصـابي آنس الـطَّفَـلا

وله هذان البيتان وفيهما تورية مليحة:

مــا لــلنــوى مــدت لـغــير ضرورة ولــطالمــا عهــدي بهــا مقـصــورَه
إن (الخــليــل) وإن دعـتــه ضرورة لم يــرض ذاك فـكـيـف دون ضرورة

وقال مضمناً للثاني:

لا تلمني عاذلي حتى ترى وجه من أهوى فلومي مستحيل
(لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفارقنا على وجه جميل)

ولما مات رحمه الله رثاه أبو القاسم الشريف بقصيدة منها:

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤدد تضمنهن الترب صوب الغمائم

وقد ذكرنا مرثية أبي بكر بن شبرين في ترجمة هذا الأخير.

كتب للمؤلف

ظهر للمؤلف الكتب الآتية:

أولاً - في الدراسات الأدبية والتاريخية:

- **النبوغ المغربي في الأدب العربي**: ثلاثة أجزاء طبعة ثالثة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، وهو مترجم إلى الإسبانية والإنكليزية.
- **ذكريات مشاهير رجال المغرب**: ط. ثانية بيروت سلسلة صدر منها ٥٠ حلقة عن دار الكتاب اللبناني.
- **شرح الشمقمقية**: ط. دار الكتاب اللبناني.
- **شرح مقصورة المكودي**: ط. مصر.
- **المنتخب من شعر ابن زاكور**: ط. ثانية دار المعارف.
- **أمراؤنا الشعراء**: ط. المغرب.
- **التعاشيب**: ط. دار الكتاب اللبناني.

ـ **واحة الفكر**: ط. المغرب.

ـ **خل وبقل**: ط. المغرب.

ـ **العصف والريحان**: ط. المغرب.

ـ **سابق البربري**: ط. دمشق.

ـ **لقمان الحكيم**: ط. ثانية ـ دار المعارف.

ـ **لوحات شعرية**: ط. المغرب.

ـ **من أدبنا الشعبي**: ط. المغرب.

ـ **أربع خزائن لأربعة علماء من المغرب**: ط. مصر.

ـ **مدخل إلى تاريخ المغرب**: ط. ثالثة ـ المغرب.

ـ **أدب الفقهاء**: ط. بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ـ **نظرة في منجد الأدب والعلوم**: ط. مصر.

ـ **أزهار برية**: ط. المغرب.

ـ **إيقاعات الهموم**: ديوان شعر ط. المغرب.

ثانياً ـ في الدعوة والدراسات الإسلامية:

ـ مفاهيم إسلامية: ط. دار الكتاب اللبناني.

ـ تفسير سور المفصل من القرآن الكريم: ط. المغرب.

ـ **فضيحة المبشرين**: ط. المغرب.

ـ **مفاهيم إسلامية**: ط. بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ـ **محاذي الزقاقية**: ط. ثانية المغرب وهو مترجم إلى الفرنسية.

ـ **القدوة السامية للناشئة الإسلامية**: ط. ثانية ـ بيروت.

ـ إسلام رائد: ط. دار الكتاب اللبناني.
ـ على درب الإسلام: ط. ثانية ـ المغرب.
ـ جولات في الفكر الإسلامي: ط. المغرب.
ـ تحركات إسلامية: ط. المغرب.
ـ معارك: ط. المغرب.
ـ شؤون إسلامية: ط. المغرب.
ـ منطلقات إسلامية: ط. المغرب.
ـ أربعون حديثاً في فضل القرآن وتعلمه وتعليمه وتلاوته: ط. المغرب.
ـ نفي تقول سخيف على الجناب المحمدي الشريف: ط. المغرب.
ـ تفسير سورة يّس: ط. المغرب.

ثالثاً ـ نشر وتحقيق:

ـ رسائل سعدية: ط. المغرب.
ـ ديوان ملك غرناطة: ط. ثانية ـ مصر.
ـ عجالة المبتدي في الأنساب: للحازمي ط. ثانية ـ مجمع اللغة العربية.
ـ ترتيب أحاديث الشهاب: لأبي الحسن الخزرجي، ط. المغرب.
ـ تلقين الوليد الصغير: لعبد الحق الإشبيلي ط. المغرب.
ـ قواعد الإسلام: للقاضي عياض ط. المغرب.
ـ شرح الأربعين الطبية: لعبد اللطيف البغدادي ط. ثانية ـ المغرب.
ـ الأنوار السنية في الألفاظ السنية: لابن جزي ط. المغرب.
ـ رسالة نصرة القبض: للمسناوي ط. المغرب.

- شرح ميارة على الجمل: ط. المغرب.
- التيسير في صناعة التسفير: للإشبيلي ط. مدريد.
- مناهل الصفا: للفشتالي ط. المغرب.



الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

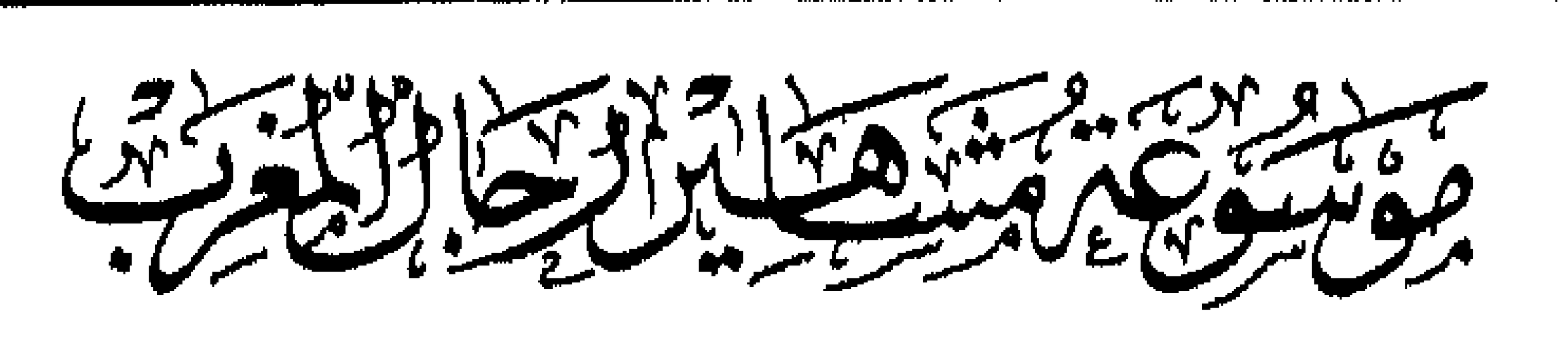
دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١
برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881
ATT. MR.HASSN EL-ZEIN
FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب ٨٣٣٠ - ٤ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX: DKL 23715 LE
بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



43



بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

الأستاذ عبد السلام الفاسي
ينوه بالذكريات

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

محبنا الأود الفقيه العلامة المطلع سيدي عبد الله كنون أمنكم ورعاكم وعليكم السلام ورحمة الله بوجود مولانا أيده الله وبعد؛

فقد استلمت بريدياً ثلاث حلقات من السلسلة التاريخية «ذكريات مشاهير رجال المغرب» التي دبجها قلمكم وأزحتم بها الستار عن شخصيات فذة شاء الله أن يهيىء لإحيائها قريحة وقادة ويوكل لإنقاذها قلما لا ينبو إذا نبت الظبا استلمتها فقرات فيها من نبوغ كاتبها نموذجاً حياً ومن ينبوع بحثه نوعاً مثالياً فلم يسعفني إلا أن أثني على مجهودكم القيم كما استلمت صحبة الحلقات الثلاث كتاب الأستاذ السيد عبد السلام الطوق «بنو عباد في إشبيلية»، وإني أراني مقدراً لمجهوده الجليل وأكبر الظن أن الحلقات التي لم تصلني من سلسلة تاريخكم ربما كان للمواصلات البريدية في اختزانها يد جريئة ولهذا أود منكم إتحافي بالحلقات الأولى والثانية والثالثة وإرسال ما تتفضلون به من منتوجكم

القيم على الطريقة التي ترونها أضمن للوصول وأسلم من الضياع حياكم الله وحيا مشاريعكم العلمية وأمدكم بروح منه وعلى خالص محبتكم والسلام في ٦ شعبان ١٣٦٩ .

عبد السلام الفاسي

مُحَمَّد المَسْنَاوِي

اسمه ونسبه، ولادته ونشأته، مشيخته، تلامذته، مكانتـه العلمية، وصف مجلسه، تآليفه، نصرته للقبض، مسألة تتبع الرخص، رأيه في قول ابن القاسم في المدونة، الأخذ بالراجح في غير المذهب أولى من الأخذ بالشاذ في المذهب، مسألة الاستنابة في الوظائف الدينية، مذهب الحنابلة في الاعتقاد هـو مذهب أهـل الحديث، قوله بعـدم انقطاع الاجتهـاد، تأنيـه في البحث ومنهجيته، إنكار للدعاوى الباطلة والشعوذة.

هو الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المَسْنَاوي بن محمد ابن أبي بكر الدِّلائي؛ شُهر بلقب جده المسناوي. وهو أحد أفراد هذا البيت الدلائي الشهير في الرياسة والعلم.

ولقد ولد بزاوية (الدِّلاء) عام ١٠٧٢ ثم انتقل لفاس عام ١٠٧٩ مع أسرته حين استولى السلطان مولاي رشيد العلوي على زاويتهم، ونشأ على طلب العلم وأخذ عن كبار المشائخ، كعبد القادر الفاسي وابنه محمـد وعبد السلام القادري وأخيه العربي وأبي عبد الله القَسْمطِيني وعبد الملك التَّاجَمُوعتي وأحمد بن الحاج وأبي علي اليوسي وعيم والده المُرابِط الدلائي وغيرهم. ونَبَغ وبرَع في المعقول والمنقول، والفروع والأصول ودرَّس علوم البلاغة والمنطق

والفقه والحديث والتفسير، وأخذ عنه وتخرَّج به جِلَّةٌ من العلماء كمحمد بن عبد السلام بنَّاني وأحمد بن مُبارك ومحمد بن زُكْري ومحمد بن قاسم جسُّوس وسواهم.

وكان حَلالاً للمشاكل، معتمداً في النوازل بيد أنه يتحرَّى من الجواب في مسائل الطلاق والنكاح، تورُّعاً وتحرُّجاً من مسؤولياتها، وكان يميل إلى تحقيق النظر وتحرير المناط في فتاواه وموضوعاته ويجادل كبار العلماء ويناقش أقوالهم، ويكادُ يميل إلى الاجتهاد، ويشارك في غير مذهب الإمام مالك، ويُرجِّحُ ما ثبت دليله من الأقوال وإن خالف المذهب، ولا يتعصب تعصب الفقراء الجامدين.

وكان له مجلس حافل في جامع القرويين يصفه الأفْراني فيقول: «وكان جميل المخاطبة حسن الأخلاق، عالي الهمة كبير التؤدة في مجلس العلم، فكان لا يستطيع الكلام في مجلسه، الأكابرُ لهيبته وعظيم سَمْتِه، وإذا أخذ في تقرير مسألة يأتي على وجوه احتمالاتها ولا يدع شيئاً مما يقع في نفوس الحاضرين مما يقتضيه المعقول والمنقول مع التحرير التام، مجلسه مجلس سكون ووقار، وخشية وتذكار، وإن صدر فيه من أحد فَلْتة مما ينافي الوقار أغلظ عليه القول حتى يدهيه، لا يسامح في ذلك جمعاً للقلوب على الجد ولو كان من كان فلا يبالي بجاهد ولا برياسته، فالضعيف والقوي عنده في ذلك سواء، يمزج تقريراته بالأدب، وله باع طويل في مناسبة ذلك بمقتضى الحال، ومع ذلك كان في انفصاله عن المجلس يبسط أخلاقه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه».

واشتهر مما وقع له في مجلسه هذا أن بعض حساده كتبوا له على كرسي جلوسه:

وكنت أرى زيداً كما قيل سيداً إذا أنه عبد الفقا واللَّهازم

فأجابهم بهذين البيتين من نظمه:

أيا من رماني بالبراعة واختفى ولم يتعرض للقنا والصوارم
هلم إلى الميدان إن كنت فارساً لتنظر من عبد الفقا واللَّهازم

وذلك مما يدل على قوة عارضته وملكته الأدبية وتحديه لخصوم الدعوة والإصلاح.

ألف بضعة كتب صغيرة الحجم، ولكنها كبيرة العلم تزري بضخامة المجلدات، التي يتكثر بها غيره من المؤلفين وهي هذه:

١ - نصرة القبض، والرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي: النفل والفرض.

٢ - القول الكاشف، عن أحكام الاستنابة في الوظائف.

٣ - صرف الهمة، إلى تحقيق معنى الذمة.

٤ - نتيجة التحقيق، في بعض أهل نسب الوثيق.

٥ - جُهد المقل القاصر، في نصرة الشيخ عبد القادر.

والرسالة الأولى مشهورة متداولة بأيدي الناس، وقد حمل فيها حملة موفقة على منكري القبض في الصلاة من المالكية وغيرهم وأتى بها صحيفة

بيضاء نضحت عن السنة المحمدية وفضحت عوار المتعنتين في هذه المسألة من جهلة الفقهاء.

وبناها على ثلاثـة مباحث، الأول في حكم القبض في صـلاتي النفل والفرض. الثاني في حكم التقليد وما ورد في الانتقال من مذهب إلى آخر من تخفيف أو تشديد. الثالث في معارضة من اعترض ذلك من الجهال وبيان ما اشتملت عليه حججهم الواهيـة من الاختلال ويتخلل ذلـك فوائـد ونكت وتحقيقات قلّ نظيرها ومن يعتني بها من المؤلفين. وقال في خطبتها: «وبعد فلما وقع في هذه الأعصار التي هطلت فيها سحائب الجهل على البوادي والأمصار، إنكار القبض على من فعله من المالكَية في صلاة الفرض وبولغ في التشنيع عليه حتى نسب إلى ما لا يُحب أحد أن ينتسب إليه، رسمنـا في ذلك هذا التقييد، وذكرنا فيه من نصوص الأيمة ما ليس عليه مزيـد». واستهل المبحث الأول بقوله: «اعلم أن قبض اليسرى باليمنى في قيام الصلاة وبدله، مختلف فيه في مذهب الإمام مالك على أربعة أقوال مذكورة في مشاهـير كتب أيمة مـذهبه كمختصري ابن الحاجب وابن عرفة وغيرهما: الاستحباب والكراهة والجواز والمنـع.

. . . فأمـا القول الأول في استحبابه في الفرض والنفل، وترجيحه منهما على الإرسال والسدل، فهو قول مالك في الواضحـة وسماع القـرنين أيضـاً واختاره غير واحد من المحققين كالإمام ابن الحسن اللخمي والحافظ أبي عمر بن عبد البر والقاضيين أبي بكر بن العربي، وابن الوليد بن رشـد وعدّه في

مقدماته من فضائل الصلاة وتبعه القاضي عياض في قواعده وكذا القرافي في الذخيرة صدر بأنه من الفضائل ثم ذكر بعدُ ما فيه من الخلاف ومن اصطلاحه فيه تقديم المشهور على غيره كما نبه عليه في خطبته قال وهو في الصحاح عنه عليه السلام ومثل ما للقرافي لابن جزي في قوانينه ونسبه عياض في الإكمال إلى الجمهور وهو أيضاً كما في الأخيرة للقرافي والميزان للشعراني قول الأيمة الثلاثة الشافعي وابن حنيفة وابن حنبل. . . الخ».

ثم مضى يفصل القول فيما أجمله وينقل كلام العلماء في هذا الصدد معززاً ذلك برواية الأحاديث الصحيحة التي أخرجها أيمة الحديث ومنهم الإمام مالك. والعجب من تنبهه لضياع هذه السنة وانتصاره لها في وقت كاد ينكرها فيه الجميع من خاصة وعامة، وأعجب من ذلك أنه لم يتأثر في هذا الأمر بعامل خارجي كما حصل لبعض علمائنا الذين نادوا بمشروعية القبض وسنيته لما زاروا بلاد المشرق ورأوا عمل الناس عليه وثاقفوا فقهاء المذاهب الأخرى واقتنعوا بحجِّيَّهم، بل كان ذلك منه اجتهاداً وصدعاً بالحق وتجديداً لأمر الدين وهذا مُنتهى البَسْطَة والرسوخ في العلم.

ومما يحسُنُ إيرادُه من هذه الرسالة فذلكةٌ في مسألة تتبُّع الرُّخَص، تُرِينا طريقة المسناوي في البحث وسعةَ نظرِه في مسائل الخلاف ونصها: «وما تقدم في كلام النَّووي من امتناع تتبُّع الرخص هو الواقع في كلام غير واحد من الأيمة، بل حكى بعضهم الإجماع عليه، وهو خلاف ما ذهب إليه عزّ الدِّين بن عبد السلام ففي جوابه المذكور بعدما تقدم ما نصه: ويجوزُ للعامِّي أن يعمل

بِرُخص المذاهب؛ لِما ذكرتُه وإنكار ذلك جهْل ممن أنكره، لأن الأخذ بالرخص محبوب، ودينُ الله تعالى يُسْر، وما جعل علينا في الدين من حرج، فإن قلنا بتَصْويب المجتهدين، فكل الرُّخص صواب، ولا يجوز إنكار الصواب وإن لم نقل بذلك فالصواب غيرُ منحصِر في العزيمة، وإن كان الأفضل الأخذ بالعزيمة تورعاً واجتناباً لمظانّ الريب.

وقال أيضاً في فصل تنويع العبادات البدنية من قواعده الكبرى فائدة في الشرع رُخص وتسهيلات، وعزائم وتشديدات، فإذا تعارض دليلان يقتضي أحدهما الترخيص، ويقتضي الآخر التعسير والتشديد. فقد اختلف أصحاب الشافعي رضي الله عنهم، فمنهم من ذهب إلى التشديد؛ لكونه أحوط وأحْصَن، ومنهم من ذهب إلى الترخيص، لأنه أرفقُ وأهوَنُ. وقد أخبرنا ربنا أنه يريد بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر، وأنه ما جعل علينا في الطاعة والعبادة مِنْ حرج، وقال ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، وقال يريد الله أن يخفف عنكم وهذا المختار، وقال عليه السلام لمعاذ وأبي مُوسى لَمَّا أرسلهما إلى اليمَن يَسِّرا ولا تُعسِّرا وبشِّرا ولا تُنَفِّرا.

وفي جواب لصاحب المعيار ذكره في نوازل الجامع من كتابه المذكور ما نصُّه بعد حكاية الإجماع المشار إليه من حافظَي الأندلس أبي عُمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزْم (لا يقال) الإجماع الذي حكيته عن ابن حزم وأبي عُمر ينتَقِضُ ويُرَدُّ بقول عز الدين بن عبد السلام الشافعي رحمه الله في بعض فتاويه. ويجوز للعامِّي إلى آخر ما نقلناه عنه أولاً من ذلك الجواب ثم قال

لا سيما والشيخ عزّ الدين بن عبد السلام هذا ممن لا يتقرَّرُ إجماع مع مخالفته باعتبار رأْيه وروايته كما شهد له بذلك الثِّقةُ العدل الضابط المحقق أبو عبد الله بنُ عَـرفَة رحمـه الله (لأنا أقـول) إن ابن حزم وأبـا عمر قـد حكيا الإجماع ومستندهما النَّقْل وعز الدين لم يُبينِّ بِفَتْواه مُستنداً فيحتمل أن يكون رأياً رآه فتفـرَّد به أو لازمَ قـوْل وهو الـظاهر من قـوة كلامـه وأيّـاً مَـا كـان فهـو إحـداث قـول بعد تقدم الإجماع فيكون باطِلاً لتضمنه تخطئه الأمة وتخطئتُها ممتنعةٌ على ما تقرر في أصول الفقه ثم قال نعم لو نقل عز الدين ما به أفتىٰ روايةً عن مُتقدم لصح نقضُ الإجماع وخَرْقه بها؛ لأنه ثقة ضابط راسخ القدم ومَن حَفِظ حجة على من لم يحفظ. ا هـ.

«قلت كلامه في القواعد الذي ذكرنا يقتضي أنَّه رواية لا رأي فتبطل دعوى الإجماع فليتأمل ولهذا أبطلها الإمام ابن عرفة به. . .».

وهذه فذلكة أخرى منها في مسألـة التقليد والانتقـال من مذهب إلى مذهب؛ لظهور الحجة للمنتقل: «وقد عُلِم ممـا قدمنـا في المبحث الثاني أن الصحيح عند غير واحد من الأيمة جَوازُ التنقل في المذاهب على الوجه السابق ولا سيما إذا ترجح عند الشخص في مسألةٍ مذهبُ غير متبوعه، فإنَّ الجمود على مذهب الإمام المتبوع في كل ما يعرض من الفروع، شأنُ البليد الجاهل، الذي ليس معه من العلم ما يهْتدي به في المَجَاهِل. قال ابن عبد السلام في قاعدة مَن يَجبُ طاعتُه ومَنْ لا، من قواعده الكبرى. ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلَّدين يقف أحدُهم على ضُعف مأْخذ إمامه بحيث لا يَجِدُ لضعفه

مذْفعاً، وهُو مع ذلـك يُقلِّده فيه ويـترك من شهِد الكتـابُ والسنةُ والأفْتيـةُ الصحيحة لِمذْهبِه جموداً على تقليد إمامه كأنه نبيء أرسل إليه بل يتخيَّلُ لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأوَّلها بالتأويلات البعيدة الباطِلة؛ نِضالاً عن مُقلَّده، وهذا نأْيٌ عن الحق، وبُعْدٌ عن الصواب لا يرضى به أحد مِن أُولي الألباب. وقد رأيناهم يجتمِعُون في المجالس، فإذا ذُكر لأحدهم خلافُ ما وطَّن نفسه عليه، تعجَّبَ منه غاية العجب من غير اسْتِرْواح إلى دليل بل لِمَا ألِفَهُ من تقليد إمامه حتى ظنَّ أن الحق مُنحصِـر في مذهب إمامه ولو تدبَّره لكان تعجُّبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره..

قال الشيخ علي الأُجْهوري في أول باب القضاء من شرح المختصر بعد نقله كلام ابن عبد السلام هذا ما نصه وقد كنتُ على هذا في عبادتي ومُعاملتي وغيرهما من حين عرفتُه».

وقد اكتفيت من نقله عن ابن عبد السلام بما ذكر ومرادي ذكر نقله عن الأُجهوري لأبينِّ كيف يُطبِّق المفصل بكلام المالكية أنفسهم كما فعل قبل في الاعتضاد بابْن عَرفَة على عدم صحة الإجماع المدَّعى من ابن عبد البَرّ وابن حزم في مسألة تتبع الرخص.

ودُونَك أيضاً هذه النُّبذة من الرسالة المذكورة في قولهم إن المشهور هو كلام ابن القاسم في المدونة:

«وأما القول بأن المشهور مُنْحصِرٌ في قول ابن القاسم في المـدونة فلم

يرتضيه الإمام الحجَّة ابنُ عرَفَة وإن قال به كثير من الأيمة وخصوصاً أهل الأندلس وذلك أنه لَّما نقل في باب الغسل في مختصره عن الباجي واللَّخْمي والمازَري أنهم نقلوا عن مالك روايةً بوجوب الغسل؛ لانْقِطاع دم الاستحاضة. قال: وقول ابن عبد السلام استشكلوا ظاهر الرسالة بوجوبه، إن كان لِمُخالَفته ظاهر المدونة، فالمشهور قد لا يتقيَّدُ بها، وإن كان لِعَدم وُجُوده فقُصور. وفي نقل التَّتائي له تحريف، فأنت تراه جعل المشهور لا يتقيد بالمدونة، أي بل يكون غير ما فيها. . الخ».

أما الرسالة الثانية فقد تناول فيها كذلك الموضوع الذي لا يزالُ قائماً، وهو الاستنابة في الوظائف الدينية: من إمامة وخطابة وتدريس واستحقاق الأجر على ذلك كله أو بعضه، وحرَّر الكلام فيها بما لا مزيد عليه. ومن الطريف اعترافُه بأن الذي دعاه إلى الكتابة في الموضوع ما هو فيه كغيره من هذه الحال. وقد أجال النظر في نصوص المسألة مذهبية وغيرها ـ كعادته ـ وبين وجه ذكر كلام غير أهل المذهب، بما يدُل على اتساع آفاق التفكير عنده.

ولقد نقل عن الحطاب كلاماً للشيخ يوسف بن عمر مُفادَه، أن الشاذَّ في المذهب يُقدَّم على ما كان خارجَه فعلَّق عليه بقوله: «ظاهره أنه يقدم عليه ولو كان الخارج راجعاً عند أهل مذهبه أي قَوِيَ الدليل أو كَثُر القائل به، وليس كذلك بل العمل بالراجح الخارج عن المذهب مقدم على العمل بشاذِّ المذهب؛ لما قدمناه من الخلاف في الانتقال من أصحيَّة جوازه مُطلقاً، ولِحرمة تقليد الضعيف المذهبي لغير ضرورة. . الخ».

أما الرسالة الثالثة في تحقيق معنى الذمة فقد وضعها جواباً عن سؤال رُفِع إليه في ذلك ولم يألُ جُهداً في تهذيبها واستيعاب المسائل المتعلقة بموضوعها. وتوسيع دائرة النظر في ذلك على ما عُهِد منه وأرضاء طموحه حتى جاءت وَفْق ما يؤمل. وختمها بقصيدة من نظمه يقول فيها:

فَشُدَّ عليه الكَفَّ ضَنّاً فإنه ... على مشرع التحقيق حام بما يُملي

ولم أدْرِ هل فازتْ يداه بغَرْفَة ... تُبرِّدُ من أحشائه غُلَّةَ الجهل

أو انقلبت كفاه صِغْراً فإن يكن ... فلا عَجَبٌ فالطَّيْشُ يعرضُ للنَّبل

وتنبُو لدى الضَّرب الصّوارمُ في الوغى ... وتكبُو جِيَادُ الخيل في الموطِىء السهل

ومَن ذا الذي تُرضى سجاياه كُلُّها ... ولو كان ـ حاشا المصطفىٰ ـ فائقَ النبل

وبقيت الرسالتان الرابعة والخامسة وهما مرتبطتان ببعضهما من حيث إن أُولاهما تتعلق بتحقيق نسب السادة القادريين وذِكْر فروعهم الموجودة بفاس، والثانية تتعلق بالشيخ عبد القادر نفسِه وبيان ما نُسب إليه من مخالفات في الاعتقاد، وقضية ذلك أنه كان نقل في الرسالة الأولى قول العِزّ بن عبد السلام: «ما نُقِلتْ إلينا كراماتُ أحد بالتَّواتُر إلاَّ الشيخ عبد القادر فقيل له هذا مع اعتقاده؟ فقال لازِمُ المذهب ليس بمذهب». وتوقَّف في ذلك أي من لَمْزِ ابن عبد السلام له في اعتقاده ثُمَّ اهتدى إلى بيان المراد منه في كلام ابنِ حَجر وغيره فجرَّد سيْفَ النصرة لهذا الشيخ وكتب هذه الرسالة.

وقد بناها على أربعة أوجه: **(الأول)** في تصحيح اعتقاد الحنابلة الذين الشيخ منهم وأنه هو مذهب أهل الحديث ونَفْي ما ينسب إليهم من التجسيم.

(الثاني) في نسبة ذلك إلى البعض القليل منهم ـ على احتمال صحته ـ ولا عار على الأكثر؛ لأنَّهُ قلَّما يخلُو أهل مذهب من أصحاب الأهواء. (الثالث) في تنزيه الشيخ عن ذلك؛ لأنه ربما كان اتِّباعُه لمذهب الحنابلة في أول الأمر، حيث لا يصحُّ تقليدُ مثله بل شأنُه الاجتهاد، وفيه كلام في الاجتهاد وإثباتِه وسبب امتناع بعض الناس من إعْلانه. (الرابع) في أنه ولو كان مُقلِّداً في الفروع، فإنه لا يكون كذلك في الأصول؛ لعلو مكانته في العرفان. وهذه الوجوه والاحتمالات التي تتضمنها إنما دُفِع إليها المسْناوي دفْعاً من قلة المصادر وعدم وجود ما يشفي غليله من كتب الحنابلة وأئمة الحديث من تقرُّر الاعتقاد حينئذ أن أهل السنة إنما همُ الأشاعرة فقط وغيرهم ضالّ مبتدع، وأنَّ مذهب السلف إن كان أسْلَم، فإن مذهب الخلف أعْلَم وأحْكَم وما إلى ذلك مما أنت به عليم. ولكن هِمَّة المسناوي لم تقعُد به مع ذلك عن تحقيق المَنَاط في المسألة وتسقُّط الأقوال من هنا وهناك حتى أثبتَ بَراءة مذهب الشيخ في الاعتقاد بما لا مزيد عليه وحرَّر مسألةَ الجِهَة بكلامٍ نفيس، ولم يبق لأن يتحوَّل هو نفسُه عن الأشعرية إلى اعتقاد أهل الحديث إلاَّ أن يكون بيده نصوص أيمتهم وكتب ابن تيمية وابن القيم مثلاً.

ولولا أن يطول نبأ الموضوع لجلبنا من كلامه ما يَجْعلك تعجَبُ بحماسته في هذا الباب.

وللمسناوي أناةٌ في البحث وتقصٍّ للمسائل عجيب، فهو كلما مرت به لفظة أو واقعة أو مُشكلة ما، وإن كانت من غَيْر صميم الموضوع الذي هو

بصدده، عقَّب عليها بالشرح والبيان ولا يتْركها حتى يَزُول إبْهامُهـا ويتَّضح أمرُها. ولا يفعل مثل بعض المؤلفين أو الناشرين الذين يُعْنَون بالتعليق على كتبهم ولكنَّهم إنما يُفسِّرون الألفاظ الواضحة، والمسـائل المفهـومة ويـتركون المشاكل والمُبهَماتِ على حالها ثم يدَّعُون أن هذه هي الطريقة العلمية للتأليف والنشر، فعلى هؤلاء أن يتمرَّنُوا في كتب المسناوي التي ذكرناهـا ولا سيما في جُهْد المُقِلّ القاصِر ليعرفوا كيف يكون التعليق واسْتيفاء جوانب البحث فإنه في هذا الكتاب بالخصوص ـ وقد قلنا إنه بناه على أربعة أوجه ـ عقَّب على كل وجه بشرح ما اشتمل عليه من الأبحاث في صفحات ربمـا تفُوقُ صفحـات الوجه المشروح ـ وهكذا تجدُ في ذلك تراجِـم الأشخاص المذكورين في البحث عَرَضاً، وشرْحَ الألفاظ الغـريبـة والأبيات النادرة وتحريـر المسائـل الفقهية والأصـولية بـل والاستطراد إلى الفـوائد الأدبيـة التي ليس بينها وبـين هـذه الموضوعات العِلْمية أيةُ صِلة. . . فإن للمسنـاوي ـ رحمه الله ـ نَـزْعةً أدبيـة ظاهرة في نَثْره القوي ونَظْمه البليغ، وهذا جانب آخر من شخصية المُترجَم لا يمكن أن نتجاوَزَه بدون أن نُشير إليه ولو على سبيل الإجمال. . .

ولكن قبل أن نُورِد شيئاً من أدبياته علينا أن نتم الكلام على مؤلفاته الدينية وما فيها من روح إصلاحية ودعوة تجديدية، وقد رأينا في الـرسائـل المتقدمة كلامه في التقليد والاجتهاد وذَبّه عن مذهب أهل الحديث في مسائل الاعتقاد ويُحْسن بنا أن نورد أيضاً كلاماً لـه في البدع والأهـواء الضالَّـة وما يُوَسْوِسُ بـه الدَّجـاجِلَة والقُبُوريُّـون على النـاس من مسألـة النُّذُور والتعلُّق

بالمشائخ وأصحاب القُبور، وهو كلام مُشْرِق نَيِّر قلَّ أن تجد له نظيراً في كلام غيره. ولا سيما رأيه الصريح فيما يُحكَى عن الشيخ أبي العباس السبتي من الأعاجيب التي لا يخرج أمره ـ كما قال المسناوي ـ مَن كونها مِن تزَيُّدات النقَلَة فلا يُوثَق بها أو أنها مما يجِب تأويلُه وحمْلُه على مَحمِل مقبول ٍ؛ لثبوت عدالـة الشيخ وسَداد طريقته لا أنها مما يُحكم به على الشرع ويُجْعل دليلاً على انخرام الأصول. . .

وهذا كلامُه في جواب عن سُؤال في الموضوع ضِمْن مجموعة نـوازِله المعروفة ونصُّهما معاً: «سيدي جوابكم رضي الله عنكم عن مسألة وهي أن فُقراء هذا الزمان جرت عادَتُهم أن يأخُذوا من ذَوي المآرب مالاً لِيَضْمنوا لهم قضـاءَ تِلْك المآرب فيقُـول الضامن منهم لـرب الأرَب: أضْمنُ لك عـلى سيدي فُلان أو على الله وعلى سيدي فلان أو أنت في ضماني لا تخف من شيء وأربَابُ الآراب في ذلك فِرَق منهم من يُعطي ما يُعطي عن طيب نفسِه ولا يعودُ فيه سواءً قُضِيت حاجَتُه أم لا، ومنهم من يعطيه مُشوِّفاً لحاجته فإن قُضيت طابت نفسـه وإلا فلا، ومنهم مَن لا يعـطي حتى تعـطي حـاجتَـه، ومن الفقـراء المذكورين من يُبرز ذلك في قالَب البيع والشراء فيبيع ممن يريد أن يتولَّى بلداً مثلاً ذلك البلد وغير ذلك من مَراتِب الصالحين أو العلماء أو الدنيا وقد يَبيعون الخُبزة أو الثمرة أو نحوها بمال عريض ولا سيما إن كانت ممن يُتبرك به ورُبما بَرز منهم مثل ذلك على سبيل المزاحِ، وكثيراً سيدي ما يَطرُق سمعَنا أن كبراء الصالحين رضي الله عنهم كسيدي أبي العباس السبتي وغيره كانت عادتُهم ذلك

فما حكم الله سيدي في هذه العادة الصادرة مِمَّن تقادم عصره من الكبراء. وهل جوازُ ذلك ـ إنْ جاز ـ خاص بأهل التعرُّف أم كيف الحكم في ذلك وفي الضامن والبائع وما أخذ أو في الفرق المضمون لهم والمبيع لهم والسلام؟.

«فأجاب بما نصه: الحمد لله إعلم أن الفعل المذكور إنما يصدر من الدَّجاجِلة الذين اتخذُوا الكذب على الله حِرْفَة وأكل أموال الناس بِتُرَّهات الباطل عادة ومعاذَ الله أن يصدُر ذلك من الفقراء الصادقين بل ولا من المتفَقِّرة المتشبِّهين بهم في الظاهر وإن لم يكن ما لهم من السر الباطن، فإن ذلك من الأمور الخارجة عن المَنْهَج الشرعي، والسَّنَن الديني المرْعي، العريقة في طريق الضلالة والمذهب البِدْعِي، إذ لم ينزل الله بها من سلطان، ولا فعلها أو قال بجوازها أحد ممن يُقْتدى به من أهل هذا الشأن، ومِن أين لأعداء الله أن يتألَّوْا ويتحكَّموا على الله فيما يفعل بعباده، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: «قل ما كنتُ بِدْعاً من الرسل وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم». وقال عليه السلام في شأن عثمان بن مظعون رضي الله عنه لمَّا قالت تلك المرأة في حقه ما قالت من الشهادة له بإكرام الله: وما يُدريكِ أن الله أكرمهُ؟ والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يُفعَل به وقضيته في البخاري وقال عليه السلام أيضاً من يتألَّ على الله يُكْذِبْه؛ واحتجاجُهم على باطلهم بما حُكِيَ عن الشيخ أبي العباس السبتي وأنظاره من أهل الصدق مع الله الذين وزَنُوا أفعالهم بميزان الشرع والورَع، وجروْا مع الحق في كل أمر مُتَّبع، رضي الله عنهم أجمعين باطل.

أمّا أولاً : فلأنها حكايات تجري على الألسنة وتُوجد في بعض الكتب التي لم يلْتزم مؤلفُوها الصحّة فيما ينقلون ولا عُرِفُوا بالنقد فيما يأتون أو يَذرُون ولم تُنقَل بسند صحيح ولا حسَن ولا ضعيف يُقبل ويستحسن فلا يجوز الاستناد في أمور الدين إليها ولا يصح الاعتماد في أحكام الشرع عليها. . . وفي عِلمكم ما وقع من كثرة الكذب عليه ﷺ في أحاديث الأحكام وغيرها مع أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره فكيف بِمَن سواه وإنما يُروِّجُ ذلك غالباً ويُشِيعه أهلُ البِدعة الذين يريدون أن يجعلوه حُجةً لأضاليلهم وسُلَّماً لأهوائهم وأباطيلهم.

«**أما ثانياً**: فبتقدير ثبوتها عنهم، وصدُور تلك الأمور منهم، فلها وجوه حسنة، وتأويلات مستحسنة، لا يفقهُها الجاهلون، وإنما يعقِلُها العالِمون، لأنه لَمّا ثبتت عَدالَتهُم، وصحَّت وِلايتُهم، بِما كانوا عليه من سَداد الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، وبما ظهر لهم من بَراهين مُنيرة، هي أجْلَى من شمس الظهيرة، تعينَّ تأويلُ ما أشْكل ظاهرُه من أفعالهم، وتحسِينُ الظن فيما خفِي علينا من أحوالهم، فمِن أ ينَ لهؤلاء الذين هم على الضدِّ منهم هدْياً وحالاً أن يقْتدوا بهم في هذه المسائل، وهم باقُون في الحضيض السافل، كلاَّ، ليس بعشِّك فادرُجي ولا بمنزلك فاخْرُجي:

عَذَرْنا النخْلَ في ابداء شَوْكٍ	يذُودُ به الأنامِلَ عن جَناهُ
فما للعَوْسج الملْعُون أبْدَى	لنا شوْكاً بلا ثَمر نَراهُ

وهلَّا اقتدوا بهم فيما كانوا عليه من الاستقامة والاجتهاد، والورَع والزُّهد في المال والجاه اللذين أهلكا أكثَر العِباد، أو وَجَدُوا ذلك مُرتقىً صعْباً،

ولم يسهل عليهم من فعل أولئك إلاَّ هذا الأمر الذي اتخذوه سُلَّماً للحُطام الحرام افتراء وكذباً.

«والحالُ أنه ليس لأحد أن يقتدي بالمشائخ فيما ثبت وصحَّ عنهم من المسائل المُشْكِلة والأمور الخفية ويدَع الجادَّة التي شرعها الله سبحانه للخاصَّة والعامَّة من عباده وتركها النبي ﷺ بَيْضاءَ نقية، وقد قرَّر العلامةُ النظَّار أبو إسحاق الشاطبي قدس الله رُوحه هذا المعنى أتم تقرير... الخ..

ونكتفي بهذا القدر من كلامه وقد ظهَرْنا منه في نفْس الوقت على بيان ناصع وأسلوب في الكتابة رائع يُؤكِّد ما قدمناه من تمكُّنِه في الأدب مع براعته في العلم. وقد كان الأديبُ البليغ أبو عبد الله محمد بن الطيب العلبي صاحب كتاب (الأنيس المُطرب) يفزَعُ إلى المترجَم في المسائل الأدبية كما كان غيرُه من الناس يفزَعُون إليه في المسائل الدِّينية وجَرت بينهما مُراسلات أثبتها العَلَمي في كتابه المذكور فلتُنظر هناك.

وقد اشتهر من شعره قصيدته التي قالها في مرضه الذي تُوفي فيه وأوصى أن يُشيَّع بِها وأولها:

يا رب عطفاً على مُسيءٍ ... أتىٰ به القومُ للمقابِرْ

وآخرها:

ويرحم الله كلَّ عبد ... يقول: آمين وهو سائرْ

وكان قد حفَر قبره قبل موته بثلاث سنين واضطجَع فيه وقرأ شيئاً من

القرآن وما زال يتعهده حتى توفى ودُفِن فيه، وهو بداخل قبة السيد العابدي بِمَطْرَح الجِلَّة خارجَ باب الفتوح من فاس.

وكانت وفاته رحمهُ الله في ١٦ شوال ١١٣٦ هـ وحضَر جنازتَه جمهورٌ غفير من النساء والرجال والأطفال وحزن الناس لِفَقْده كثيراً.



الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٢٠١ - ص ب ١٠٦٩ - الرمز البريدي ١١٥١١
برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
TELEX No: 23081-23381-22181-21881
ATT: MR.HASSN EL-ZEIN
FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب : ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX: OKL 23715 LE
بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



موسوعة مشاهير رجال المغرب

44

محمد بن المدني كنون

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

محمد بن المدني كنون

معلومات أولية ـ نشأته وطلبه للعلم ـ مشيخته ـ تلامذته ـ مكانته العلمية ـ دروسه الجامعة ـ ثناء الناس عليه ـ تآليفه ومواقفه ـ رسائله السياسية وأفكاره الإصلاحية ـ تعرُّضه للأذى من طرف المُبطلين والحكام ـ وفاته.

جاءتني رسالة من محل الولد العزيز السيد العربي كنون مؤرخه بمنتصف ربيع الثاني ١٤٠٢ يقول فيها:

عمنا الأمجد.

السلام عليكم ورحمة الله.

ستحُلُّ كما لا يخفى عليكم في غُرّة ذي الحجة المقبل، الذكرى المئوية لوفاة قطب من أقطاب المغرب، وعلم من أعلام الإسلام شيخ الجماعة سيدي الحاج محمد بن المدني كنون.

وقد ارتأَيْتُ أن أفاتحكم في موضوع إحياء ذكرى هذا العالم الجليل تقديراً لعلمه ومعارفه، وتنويهاً بعمله ومواقفه، وأعتقد أنه من أوجب الواجبات أن يعمل ذوو القربى فضلاً عن المهتمين بتاريخ المغرب ورجالاته، على إقامة هذه الذكرى وإضفاء الصبغة اللاَّئقة عليها في ظل الصحوة الإسلامية التي تعرفها بلادُنا احتفاءً بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، وما

ذاك إلا تحية من الخلف للسلف، وتجديدٌ من الأبناء لعهد الآباء وتخليدٌ لاسم الفقيه الكبير، وتعريف بمؤلفاته العديدة، ومواقفه الشجاعة، وما تُوحي به هذه الذكرى مِن إحساس بكرامة العلم وشعور بمسؤولية الدعوة إلى الإصلاح.

ولئن كان العلماء وأهل الغيرة والدين من الجيل السابق تعرفوا على هذا الشيخ الجليل من خلال أعماله وكتُبه ومجالسه العلمية الذائعة الصيت، فإن الجيل الجديد لا يكاد يعرف عنه شيئاً سوى ما ورد في كتاب «النبوغ المغربي» وهو لا يشفي غليلاً، وكتاب «الدر المكنون» للعلامة المشْرفِي غير متداول لنفاذ طبعته منذ زمان، كما أن ما كتبه الأستاذ العَرْوي في حق الفقيه الكبير لا يعدو أن يكون مجرد تعضيد لواقعة وتأييد لوجهة نظر.

ثم تقول الرسالة:

واليوم ألتمس منكم، أن تعملوا على إحياء هذه الذكرى لما لها من مغازي ومرامي، فقد رفعتم النبراس عالياً وأديتم الأمانة، وتحملتهم مسؤولية متابعة المسيرة بالإبداع والتجديد مع الثبات والإخلاص للأصول والمبادىء.

وختاماً أسْتسمِحُكم في الإنهاء إليكم بهذه البادرة وقد تعمدت عدم التطويل والتعليل، فالاجتزاء نصف البلاغة، وسلامي إليكم وإلى الأخوة الأساتذة وجميع الأسرة.

الرباط في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٢ موافق ١٠ يبراير ١٩٨٢
الإمضاء: العربي كنون

لا شك أن الروح الطيبة التي أملت هذه الرسالة على الأستاذ العربي بقيت تنتظر الجواب العملي منذ إطلالة شهر ذي الحجة الحرام، وأنا في هذا الشهر كنت في الديار المقدسة للحج، وقبله للمشاركة في أعمال المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

وبعد رجوعي لم أجد هنا من يردد صدى مبادرة السيد العربي لا من قريب ولا من بعيد، فأنّى لي بإقامة الذكرى المقترحة، والمعهود أن ذكريات الآباء والأجداد إنما يقيمها أبناء الزوايا، فلو أنها أتيح لها من ينهض بها لكنت أحد المشاركين بما أعلمه عن الفقيه الكبير رحمه الله بحكم قرابتي منه فقط لا غير.

ثم إني لا أجِدُ وقتاً أتفرغ فيه لمثل هذا العمل، وما أنا فيه لا يقل أهمية عن الذكرى، بل لعله يكون هو الذكرى الحقيقية التي يسرّ بها الفقيه في برزخه وينتفع بها المسلمون في حياتهم اليومية أقصد المسلمين الذين يتّصلون بي ويتتبعون عملي، وليس المسلمين كافةً، عياذاً بالله من الغرور.

ومع هذا فإني أستجيب لدعوة الأستاذ العربي كنون بما أستطيعه من عمل يتوافق وطبيعتي ويكون فيه تعريف ولو في دائرة محدودة، بشخصية الشيخ كنون ودعوته وأفكاره الإصلاحية وجهاده في الحياة العملية من أجل العودة بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه من سُمُو وطُهْر في ظل حكم شرعي عادل.

وبخصوص كتاب العلامة المشرفي في التعريف بالشيخ المسمىٰ بالدرّ المكنون، فإنه لا يعزّ على أساتذة الأسرة ومثْريها إعادة طبعه، بهذه المناسبة،

لا سيما والطلب عليه كثير، وتصلني دائماً طلبات عليه من الداخل والخارج، وقد كانت عندي منه بعض نسخ أهديتها للطالبين من أهل العلم بالجزائر وتونس والمغرب ونفِدت منذ زمان، ولم يبق عندي منه إلا نسختان خطيتان إحداهما بخط مؤلفه.

أما الأستاذ العروي فلم أطلع على ما كتبه عن الفقيه، ومن المهم تعريب ما كتب عنه باللغة الأجنبية والتعليق على ذلك بما يلزم والله الموفق.

وتحية مخلصة للسيد العربي حفظه الله.

معلومات أولية:

يُخْطِىءُ كثير من الكتاب الشرقيين في اسم هذا الشيخ ويَخْلِطون بينه وبين أقربائه الذين يحملون اسمه ولقبه معاً أو الذين يحملون لقبه فقط، وذلك عند نِسْبة بعض مؤلفاته لأحد هؤلاء الأقرباء أو العكس. في فهارس الكتب وفي تراجم من يترجمون لهم مِن آل كنون بل إن هذا الخلط يقع فيه بعض الكتاب المغاربة ممن لا يحققون ما ينقلون ولا يُنقِّحُون ما يكتبون.

والكتَّابُ المشارقة لا يعرفون عن دعوة الشيخ وأفكاره الإصلاحية شيئاً، لأن من ينقلون عنهم من كتاب الجيل السابق كانوا يُجْمِلون القول في ذلك ويُلَخِّصُونه في العبارة الشهيرة، ناصر السنة وقامع البدعة، وما أشبهها والكتَّابُ المعاصرون لم يدركوا زمنه فيعرفون ما كان له من تأثير في الحياة الدينية والسياسية، ولم يقرأوا كتُبه فيلمُّوا ولو بقليل من اتِّجاهه الإصلاحي، لذلك بقيت دعوته وآراؤه ومواقفه الشجاعة من السلطة وأهل الابتداع والضلال مجهولة عند الجيل الجديد أو غير مُقدَّرة كما يجب.

من أجل هذا رأينا أن نبدأ بتصحيح الأخطاء وتوضيح الإشكالات، في معلومات أولية لا بد منها لتحرير ترجمة الشيخ وتخليصها من الأوهام التي اكتنفتها في أذهان بعض الناس وتسربت إلى كتابات بعضهم عنه.

فاسم الشيخ محمد بن المدني كنون، وكنون بفتح الكاف المعقودة وتشديد النون المضمومة قبل الواو هو لقب الأسرة التي ينتمي إليها الشيخ، وهو لقب أطلقه البربر على محمد بن القاسم بن إدريس الحسني، يقال إن معناه القمر، فسرىٰ في عقبه وعُرفوا به، وهم يحُلُّون بعدة قبائل مغربية ومُعظمهم من قبيلة بني مستارة الذي هم فرقة الشيخ، ومنها دخل جده عبد الله إلى فاس طالباً للعلم، فاستقر بها لما تزوج بنت شيخه العلامة الشيخ سيدي محمد بن عبد السلام بناني شارح الاكتفاء كتاب في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء للكلاعي، كما بيِّن ذلك بكل تفصيل مترجمه السيد محمد بن مصطفى المشرفي في كتاب الدر المكنون في التعريف بالشيخ كنون.

ثم إن الشيخ كثيراً ما يُوصف بالحاج فيقال فيه الحاج محمد بن المدني، وهو لم يحجَّ حجة الفريضة وإنما حج صبياً دون بلوغ مع والده الفاضل السيد المدني في حجته الثانية. . . ويُروَى عن والدته السيدة خديجة الزَّرْوالية ابنة الفقيه الكاتب السيد أحمد الزروالي أخ العلامة المحقق سيدي محمد بن عمرو الزروالي شيخ الجماعة بفاس على عهده، وكانت مُعمَّرة عاشت بعد ولدها مدة طويلة، أن والده السيد المدني دعا الله عز وجل في حجته الأولى أن يهبه ولداً عالماً عاملاً فاستجاب الله دعاءه ورزقه ولدين اثنين على الصفة المطلوبة، هما الشيخ محمد وأخوه السيد التهامي الفقيه العلامة المحدث الكبير.

وكانت ولادة الشيخ بفاس عام ١٢٤٠ وولادة أخيه عام ١٢٥٠.

ويُوصف الشيخ بالفقيه كنون الكبير فرقاً بينه وبين الفقيه العلامة الحافظ النظار السيد محمد بن محمد بن عبد السلام كنون الذي يوصف بالصغير، وهو من أقربائه وتلامذته.

ومحمَّد في الأسرة أكثر من واحد، ويشتبه الأمر على البعض فيخلِطُ بينهم وينسب تآليف هذا إلى ذاك، وأكثرهم التباساً بالشيخ هذا المذكور قبله، ولكن الفرق بينهما كبير، في الاتجاه والتحرر، وإن كانا في العلم فرسي رهان، وعُرِفَ هذا بالتحقيق والمشاركة في العلوم والتمكين حتى أن المحققين من علماء فاس في الثلاثينات وما بعدها من القرن الهجري المنصرم كانوا تقريباً كلهم من تلامذته وتوفى عام ١٣٢٦ هـ.

ومن المحمدين من علماء الأسرة الشيخ العلامة المربي سيدي محمد بن التهامي كنون، وهو عالم مشارك مؤلف في الفقه والعربية والسيرة والتصوف، وانتفع به خلقٌ من الناس وتوفى عام ١٣٣٣ هـ.

ومنهم من الأحياء العلامة الأديب سيدي محمد بن عبد الصمد كنون كاتب وشاعر وخطيب له عدة تآليف منها دواوين شعرية وخطب منبرية وهو بقيد الحياة حفظه الله.

ومنهم الفقيه العلامة الأستاذ محمد بن عبد السلام كنون مفيد الشيخ، وله عدة كتابات وبحوث فقهية وأصولية، وهو الآن رئيس غرفة الاستئناف بفاس. دام حفظه، إن هؤلاء كلهم على اسم الشيخ ولقبه فربما، ورب للتكثير، اشتبه اسم أحدهم باسم الشيخ ونسب ماله إليهم وماهم إليه لا سيما

وقد اشتبه به على البعض حتى من ليس اسمه محمداً،فلعل ذكرنا لهم يبعد هذا الاشتباه ويعطي لكل ذي حق حقه.

بقي أن نشير إلى أن لفظ كنون يكتب بالكاف وبعضهم يكتبه بالجيم، وهو خلاف المتبع، فالشيخ ما كان يكتبه إلا بالكاف، وهو كذلك في رسُوم ووثائق الأسرة، ثم هو كذلك في كتب التاريخ المشهورة مثل كتاب القرطاس لابن أبي زَرْع وكتاب العِبر لابن خلدون وكتاب الاستقصا للناصري وكُتب الأنساب المعروفة كدرّة التيجان للدِّلائي ونشر المَثاني للقادري وشُذُور الذهب لابن رحمون وغيرها.

ويُفرِّقُ صاحب كتاب الشرف المصون لآل كنون بين كنون وجنون نسبيّاً ويرجع كل منهما إلى قُعْدُدٍ مُتميز عن الآخر هذا بحكم أن هذا اللفظ بربري فإنه قد يوجد في غير المنسوبين لا سيما وبعض تلامذة الشيخ وأخيه ومريديهما كثيراً ما سمَّوْا به أولادهم حتى أن هناك من سُمِّي بالتهامي كنون أي باسم ولقب أخي الشيخ المشار إليه آنفاً ولله في خلقه شؤون.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الشيخ في كنف والده الخير الدِّين السيد المدني ووالدته الفاضلة السيدة خديجة، وقد حرصا معاً على تربيته تربيةً مُثْلى لا سيما وهو كما سبق القول كان ثمرة دعوة صالحة من والده بالأماكن المقدسة في حجته الأولى، ومن عناية والده بتربيته اصطحبه معه في حجته الثانية. عملاً بما جاء في الحديث الصحيح أن امرأة رفعت للنبي ﷺ صبيّاً، وهي تقصد الحج فقالت: ألهذا حج يا رسول الله قال: نعم ولك أجر وقد لزمه لقب الحاجّ، وإن لم يكن حجه

في وقت الوجوب، على المعتاد في مثله من الصبيان، إذ يتعمد الناس وصفهم ونداءهم به إعجاباً وتحبُّباً ويكون لذلك في نفس الصبي أثر حميد ووقع حسن.

وكانت والدته تحدثه عن عمها العلامة الشيخ أبي عبد الله بن عمرو الزروالي وما كان من تعظيم السلطان مولاي سليمان له، وزيارته له في بيته لِمذاكرته في العلم وقراءة بعض الكتب عليه، وكان السلطان كثيراً ما يطلبه ولكنه يمتنع عليه ويعتذر ببعض الأعذار، فيفاجئه السلطان بالزيارة على غير موعد في بيته مُتنكِّراً وربما وجده في مهنة أهله فيساعده على ذلك ليتفرغ له الشيخ ولِما جاء من أجله، وكان الصبي يستمع لذلك باهتمام كبير ويرسخ في ذهنه فضل العلم والعلماء وأن الملوك والأمراء يحتاجون إليهم ويعظمون جانبهم، فيزيد حماساً واجتهاداً في القراءة والتحصيل، لإقرار عينيْ والده ووالدته بتحقيق ما يؤملانه فيه.

وبعد التأهب بحفظ القرآن الكريم ومتون العلم المتداولة دخل الطالب الحاج إلى جامعة القرويين للارتواء من معينها العذب الزلال، فلزم مشائخها الأعيان صباحاً ومساءً، يقتبس من مشكاتهم ويشف سمعه بِدُررهم، وكان منهم على ما ذكره مترجمه المشرفي العلامة محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الحجرتي، وهو عمدته والعلامة أحمد المرنيسي والفقيه العبَّاس بن الطيب بن كيران والشيخ سيدي الوليد العراقي والشيخ مولاي عبد السلام بو غالب والعلامة محمد بن عبد الله المجّاوي والعلامة بدر الدين الحمُّومي والعلامة محمد الكردودي والشيخ الطالب بن الحاج وغيرهم من جلة العلماء.

وكان ما أخذه عن هؤلاء الأعلام الفقه والعربية والحديث النبوي

والتفسير والأصول والكلام والمنطق والبلاغة والسيرة النبوية والتصوف وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية، ومنهم من أخذ عنه بالقراءة والإجازة ومنهم من كان أخذه عنه على العكس بالإجازة دون قراءة ومن هؤلاء الشيخ محمد صالح الرضَوي البخاري الذي ورد على فاس زائراً وكانت له أسانيد عالية حرص المشائخ على استجازته من أجلها، وكان المترجم منهم.

ومن المسلَّم به عند المعاصرين والآخذين عنه أن علومه كانت أكثر من دراسته وأوسع من طلبه، إذ ما فتىء أن اشتهر وظهر من تحصيله ورسوخ قدمه في العلم ما كثر منه العجب، وسلم له أقرانُه وأكبَرهُ أساتذتُهُ واعترف الجميع له بالمشيخة على فَتاءِ السِّن ونضارة الشباب. ولا شك أن ذلك كان نتيجة اجتهاده واعتماده على نفسه وجهوده الفردية في القراءة والاطلاع كما تنم عليه نقوله الكثيرة في كتبه ورسائله وما أخبر به غير واحد من تلامذته من أنهم كانوا يسمعون منه من نوادر المسائل ما لا يجدونه في كتاب.

ولا نغفل مع ذلك ما يفتح الله به على أهل العلم العاملين المخلصين في بثه ونشره وإرادة النفع لعباده ـ والشيخ منهم ـ من أبواب المعارف ومدارك الفهوم، اعتباراً بقول أبي سليمان الداراني أن النفوس إذا صَمَّمت على ترك المعاصي جالت في الملكوت ثم رجعت إلى صاحبها بطرائف من الحكمة من غير أن يلقي إليها عالم علما، ومصداقه الحديث من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم، وفي الصحيح قيل لعلي بن أبي طالب (ض): هل خصَّكم رسول الله ﷺ يا آل البيت بشيء؟ فقال: لا، إنما هو كتاب الله وما في هذه الصحيفة ـ وأشار إلى صحيفة في قِراب سيفه فيها العُقُول والديات ـ أو فهمٌ أُوتيه رجل مسلم.

فالفهم عن الله والاجتهاد في البحث عن الحقيقة مما يفتح آفاق العمل النافع ومجال الإصلاح المنشود، ولذا كان الشيخ من الدعاة والمصلحين المتميزين عن أهل زمنه وعلماء عصره بمبادراته ومواقفه، وكان لما يشعر به من مسؤولية التَّغْيِير يرى ما لا يَرَوْن، ويرفع صوته بما يسكتُون عنه.

هذا ومن منهجية الترجمة لأهل العلم أن يُذكر بعد المشائخ الذين أخذوا عنهم المشائخ الذين تتلمذوا لهم، حفظاً لسند العلم، وفَرْقاً بينهم وبين المدعين أو المدَّعىٰ لهم أنهم رجال علم ورُسُل معرفة فيقال في حقهم من هم الذين روَوْا عنهم أو تخرجوا على يديهم، ونحنُ لا نجد لهم ذاكراً في الفهارس ولا نعثر على أنه كان لهم مجلس بين المجالس؟! وتلامذة الشيخ لا يحصون عدداً، وقد كانوا متفرقين في المدن والقرى بجميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ويُعرفون بتمكنهم وعلو كعبهم في العلم ولا سيما في الفقه والحديث، وتمسكهم بالسنة وإنكارهم للبدع والخرافات والدعاوى الباطلة وقد ذكر العلامة المشرفي نخبة منهم وهم ثلة قليلة من أهل فاس في الغالب ولكنهم كانوا في وقتهم من علماء الطبقة الأولى الذين سارت بذكرهم الركبان وتشد الرحال إليهم من كل مكان، وفي طليعتهم أخوه السيد التهامي والقاضي مولاي عبد الهادي الصقلي وسيدي محمد فتحا القادري وسيدي محمد بن التهامي الوزاني ومولاي الكامل الأمرائي والسيد عبد الرحمن بن القرشي والقاضيان السيد عبد الله بناني والسيد عبد السلام الهواري والسيد أحمد بن الجيلالي والسيد المهدي الوزاني والسيد العباس التازي والسيد المدني بن جلُّون والقاضي السيد عبد العزيز بناني والسيد عبد السلام بن زَرُّوق العرايشي والسيد أحمد الزواق التطواني والسيد الغالي بن سليمان والسيد محمد

فتحا بـن محمد كنون المعروف بالصغير وغيرهم.

وأكثرهم ممن كان لهم اليد الطولى في التأليف، وكتبهم تملأ خزائن العلم وجميعهم ممن عكفوا على نشر العلم بالتدريس وكـانوا من أسـاطين جـامعة القرويين المشار إليهم بالبنان أو منارات العلم التي يهتدى بها في بلدهم الذي يقطنونه من غير مدينة فاس.

مكانته العلمية:

كان اختصاص الشيخ كنون هو علم الفقه أو هو ما يغلب عليه لحد أنه كان إنما يُعرف بالفقيه، وعلى ما سمعنا من غير واحد من العلماء الذين أدركوا زمنه، كان وصف الفقيه يكاد يكون علماً بالغلبة عليه، بحيث إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وفيما نظن أن آل فيه للكمال فهو يعني أنه الفقيه الذي تحقق فيه هذا الوصف وكمُل فلم يكن نعته به مجاملة أو على سبيل التجوُّز كما هو الغالب فيمن يوصفون بالفقيه؛ وهم من أهل العلم بالنحو أو بالحساب أو من الملمين بالفقه وغيره من العلوم ولكن لا على سبيل الرسوخ والتمكـين حتى صارت هذه الصفة تعني ما تعنيه حكمة المثقف عندنا اليوم من غير أن نصدق بمفهوم اختصاص مّا.

وهذا على كل حال لا يعني أنه كان قاصراً عـلى الفقه أو مختصـاً فيه بمصطلح الاختصاص الذي نعرفه في وقتنا هذا، فالشيخ كان كذلك إماماً في علوم شتى ومنها بالتأكيد علوم التفسير والحديث والأصول والكلام والتصوف ورسـائلها المـوصّلة إليها من علم اللغـة والنحو والصرف والبيـان والمنـطق والحساب والهيئة والطب كما تدل عليه كتاباته وأنظامه في كل من هذه العلوم،

فالاختصاص بالنسبة إليه أحرى أن يكون أو يفسر بما يعني العلوم الإسلامية وعلى رأسها الفقه.

وغني عن البيان أن المراد بالفقه هنا الفقه المالكي المعمول به في المغرب والتتبع من لدن السكان قاطبة حكاماً ومحكومين منذ قيام الدولة الإدريسية في القرن الثاني الهجري بالمغرب الأقصى وفي الأندلس وباقي أقطار المغرب العربي تقريباً في نفس الوقت وفي بلاد إفريقيا على العموم إلا ما قل، مع استثناء مصر التي ينتشر فيها المذهب الشافعي، ومع ملاحظة دخول المذهب الحنفي إلى الأقطار المغربية التي حكمتها الدولة العثمانية باعتباره المذهب الرسمي لها مع بقاء المذهب المالكي منتشراً فيها بكثرة.

تُقرر هذه الحقيقة لبيان الواقع، ولنُقرر أن الشيخ كان حاملاً لراية الفقه المالكي في وقته وكان صيته يبلغ إلى أقصى هذه البلاد المتمذهبة بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه يستفتى منها وتنتشر كتبه فيها ويقصده الطلاب من أقصاها ويأخذ علماؤها برأيه ويعتمدون قوله في هذا المذهب لا سيما وهو كان باحثاً نظاراً مقارناً لأقوال أئمة المذهب بعضها ببعض مرجحاً لما قوى دليله المبني على الكتاب والسنة والمخرَّج على قواعد المذهب المعروفة فلم يكن فقيهاً جامداً كما وصفه بعض المفتونين ممن حقه أن يخجل من نفسه ومن تصرفاته الطائشة، أو فقيهاً خارجاً على إجماع المسلمين نابذاً للكتاب والسنة كما يحلو لبعض الناس اليوم أن يصوروا فقهاء المذاهب وهم لا يزيدون على أن يدعوا لمذهبهم الخاص واجتهادهم الذي يخطىء ويصيب كسائر الاجتهادات وتقليدهم بدل المذاهب الأخرى زاعمين أن ذلك هو الحق والصواب، وهو مقتضى السنة والكتاب ومُتشنِّعين على علماء الأمة وأئمة المِلَّة بما لا يروج إلا عند العوام

وغلاط الأفهام، بل ربما كفروا عموم المسلمين بدعواهم أن تقليدهم لأئمة المذاهب هو عبادة لهم من دون الله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) وهم أول من يصدق عليهم وعلى اتباعهم هذا الحكم إن صح لأنهم بتقليدهم يصبحون آلهة لإتباعهم، وهذا من الباطل الذي لا خفاء له.

نعم إن الشيخ كان فقيهاً على مذهب مالك، كما كان جل بل كل علماء المغرب الكبير من محدثين ومفسرين وحملة الشريعة الإسلامية الذين حفظوا الأمانة وحافظوا عليها وبلغوها لمن أتى بعدهم حتى بقي هذا الجزء من العالم الإسلامي مسلماً صحيح الإسلام متمسكاً بعقيدته مُحتكِماً إلى شريعته مُتَّبعاً لما كان عليه سلف الأمة من تصحيح العقيدة وإقامة الدليل عليها من الكتاب والسنة كل على قدر ما يصل إليه إدراكه ويُبَرِّئه من التقليد آخذاً في عبادته ومعاملاته بأقوال العلماء وفقهاء المذهب المستنبطة من أدلتها الإجمالية ونصوصها الأصلية، ولا شيء أعز عنده من دينه فهو أحب إليه من ماله وولده عليه يَحيى ويموت رغبة في رضى الله عز وجل آملاً في نجاته غداً وسعادته في دنياه وأخرته ومثل ذلك يقال في سائر البلاد الإسلامية المتبعة لمذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أخذه بالسنة أيضاً في العبادات من ذلك تأييده للبسملة وقوله: «إن الجهر بها أو السر على حد سواء في المخالفة للمذهب فلا معنى للسرِّية وكذلك تأييدهُ للسكوت في تشييع الجنازة على ما حققه الرهوني وكذلك سكوته على تأييد القبض وعدم التعرض لترجيح المالكية كما فعل غيره من تلامذته فمن دونهم ،ولعل البرهنة على ما قلناه تظهر بأعماله هو

قبل أقوال الناس فيه. فلنبدأ باستعراض أعماله في هذا الصدد، ونفصِّلُها فصْلَيْنِ: دروسه العمومية التي كان يلقيها للطلبة والناس، وتآليفه في مادتي الفقه والحديث وما إليهما من العلوم الإسلامية.

أما عن دروسه فأهمُّها درسه الفقهي بالقرويين صباحاً ودرسه الحديثي بسيدي قاسم بن رحمون مساء ودرس القرويين كان يجلس له في الحصة الأولى التي تلي صلاة الصبح وقراءة الحزب والمسماة عند الطلبة بالأول ويستمر فيه إلى الحصة الثانية المسماة بالثاني وربما إلى الثالث أي ما يقارب ثلاث ساعات، لا يكلّ ولا يملّ فيجُول في آفاق العلم والمعرفة نصّاً ونقلاً ونظراً وفكراً وتطبيقاً وتمثيلاً مع المقارنة بين الأقوال والترجيح والاستشهاد بآيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة وأقوال الصحابة والأئمة المقتدى بهم من أهل العصر الأول والسلف الصالح إلى من بعدهم من العلماء العاملين والفقهاء العارفين وأرباب القلوب المتقين، حتى يستوفي حق الموضوع ولا يبقى فيه لأحد ما يقول، وكل ذلك في وقار تامّ وجِدِّية باللغة بحيث يَمْلِكُ زمام المجلس وتتعلق به الأبصار فلا يزيغ عنه طرف ولا تبدو من أحد بادرة انشغال بغير ما هو فيه لهيمنة روح التحصيل والاستفادة على الجميع.

مثل ذلك يتال في درسه الحديثي الليلي الذي يحضره الجم الغفير من الناس خاصة وعامة. فيأخذ كل منهم بحظه، لا سيما وهو يتعرض فيه لأحوال المجتمع وما عليه كل فئة من الناس من الانحراف عن الجادة والتفريط في أمر الدين والانشغال بالدنيا والانهماك في البدع والمخالفات ونسيان الآخرة والعَرْض والحساب، فيُبدِئ ويُعيد ويستقصي أحوال المقصرين حتى يكاد يشير إلى كل واحد بعينه وما هو عليه من البطالة مما يُعَدُّ مكاشفة صريحة ويبعث

المعني بالأمر على التوبة والإنابة إلى الله كما حكى غير واحد عن نفسه من الطلبة وعموم الناس.

ونقتطف بعض الفقرات من كتاب الدر المكنون للعلامة المشرفي تتعلق بهذا المعنى، يقول رحمه الله: «كان قدس سره في علم المعقول عَلَماً واضحاً، وفي علم المنقول بدراً لائِحاً، متى قصدته في فن منهما وجدته بحراً زاخراً، ومتى سألته عن عويصة لفظت لك أمواجه دراً فاخراً، ومتى درَّس فناً خلْته لم يعرف سواه، وقطعت بأن جميع عمره أنفقه فيه وأفناه، ومن الشائع المعلوم، أنه فريد دهره، ووحيد عصره، في سائر العلوم، متى تعارضت الأدلةُ صرّف كُلًّا منها لما يقتضيه لشِدة تمسكه بأثر النبي ﷺ وطول باعه فيه، وبالجملة فهو السواد الأعظم كما قال إسحاق محمد بن أسلم، أن الله لم يكن ليجمع أمته على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم.. الخ.

ويقول العلامة المشارك النظار سيدي محمد بن قاسم القادري في فهرسته: «كان رضي الله عنه كبير الصِّيت والقدْر، عظيم الجناب والخطْر، ذا مهابة ورفعة، وجلالة ومكانة ومنْعَة، قوّالاً بالحق لا يخشى صَوْلة ظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، جميل المشاركة، ثابت الملكة، فتَّاقاً لأفكار العلوم، درَّاكاً لغوامض الفهوم، مرجُوعاً إليه في حل المشكلات، مقصوراً عليه في دفع الشبهات، له معرفة بالفقه والحديث والتصوف والنحو والأصلين وغير ذلك.. وقد ضاعت لموته علوم، لتحريره لها تحرير أهل اجتهاد على الخصوص والعموم، وفيه يحق أن يقال، ويحسن المقال:

حلَف الزمانُ لَيأتِينَّ بمِثْله   حَنِثَت يمينُك يا زمان فكفِّر»

ويقول العلامة الوزير محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : «هذا الشيخ من أكبر المتضلعين في العلوم الشرعية الورعين، المعلنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وخاتمهم في المغرب، شيخ شيوخنا وشيخ جل شيوخ المغرب، رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع، كان فقيهاً محدِّثاً نحوياً لغوياً معقُوليًّاً مشاركاً محققاً نزيهاً قوالاً للحق، مطبوعاً على ذلك، غير هَيَّاب ولا وَجِل، مِقْداماً مَهِيباً، عالي الهمة ذؤُوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكـر والبدع التي تكـاثرت في أيامه، لا يخشى في الحق لومة لائم، يحضُر مجلسه الولاة والأمراء أبناءُ الملوك وغيرُهم يصرح بإنكار أحوالهم وما هُم عليه مُبينٌ لهفواتهم غـير متشدق ولا متصنع بل تعتريه حال ربانية، ولكلامه تأثير على سلطان النفـوس. رُزق في ذلك القبول والهيبة، على نحول جسمه، وَوَصَلتْه بذلك إذايةٌ، وسُجِن، لكن بمجرد سجنه اعتصب الطلبةُ وقامت قيامة العامَّة، وأُطلِق سبيله، لذلك فهو أحق من يقال في حقه مُجدِّد لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر في وقته».

نسجل هنا أن هذه التظاهرة التي قام بها الطلبة وعموم الناس ولا سيما عمال الدباغة والخرازة والصباغة وغيرهم من الحِرْفيِّين والتجار والفلاحين عند سجن الشيخ لعلها أول مظاهرة تقعُ بالمغرب فيما قبل العصر الحديث، ضداً على قمع حرية الفكر واضطهاد العلماء الأحرار، وسَنعودُ إليها عند الكلام على مواقف الشيخ وأفكاره الإصلاحية.

وأما كتبه فأشهرها الكتاب المعروف بالاختصار في أربع مجلدات وهو في الواقع اختصار لحاشية الشيخ الرهوني الكبرى التي وضعها على حاشية الشيخ

بناني على شرح الزرقاني لمختصر الشيخ خليل الجُنْدي المبين لما به الفتوى في مذهب الإمام مالك وأهمية هذه الحاشية عظيمة جدّاً لأنها صَحَّحت الأخطاء الواقعة في شروح الأجَاهِرة أعني الشيخ علي الأجهوري وأتباعه من تلامذته وغيرهم التي حذّر الفقهاءُ من اعتمادها إلا بمراجعة ما كتبه عليها الشيخ الرهوني الذي التزم بذكر النصوص وتسجيل النقول المنسوبة لأئمة المذهب بالتمام والكمال من غير حذف ولا تصرُّف، فَفَضَح تلك الأخطاء التي آنْبنتْ عليها أحكام غير صحيحة. ولكنها طالت بسبب ذلك فجاءت في ثمانية مجلدات فاختصرها الشيخ وحلاّها بفوائد يأتي بغالبها في أول الأبواب، كأصل الباب من الكتاب والسنة وتصحيح المعاملات والتحذير مما يقع فيها من المخالفات الشرعية وقرَّب على القارىء ما عسى أن يطول عليه من استيعاب تلك النصوص مع مُناقشة بعض الأقوال وردّ ما لا يصح منها، وقد طبع الاختصار مع الأصل ويعتبران معاً من المراجع الفقهية التي لا غنىٰ عنها للباحث والمفتي والمدرس.

ومن كتبه حاشيته على موطأ الإمام صدرها بمقدمة مطولة في التعريف بالموطأ ومؤلفها وساير فيها ساذج الفقه المأخوذ به من الراجح والمشهور وما به العمل وهي مطبوعة طبعة حجرية بفاس مع المتن في مجلدين.

ومنها حاشيته على شرح الشيخ بنيس لفرائض المختصر اعتمدها كل الذين كتبوا في الموضوع من بعده وهي أيضاً مطبوعة بفاس.

ومنها تأليفه في النشوز وأحكامه وهو الخروج على طاعة الزوج وما يتعلق به، مهم جداً لأنه حرر المسألة وأعطى الطرفين من الزوج والزوجة وما

يستحق كل منهما، مطبوع كذلك.

ومنها تأليفه في الشهادة والفتوى والقضاء وشروطها والأحكام المتعلقة بها مما يرتفع بهذه الخطط الشرعية عن المستوى الهابط الذي وصلت إليه، وهو مطلوب في الداخل والخارج ومن المجامع الفقهية والكليات الإسلامية، ولكنه نفد منذ زمان وأصبح نادر الوجود.

ومنها كتاب الدرر المستنيرة بشرح حديث لا عدوىٰ لا طِيرة تنزل فيه لمسألة العدوىٰ وما قيل فيها طبياً وفقهياً وجمع بين الأحاديث المتعارضة وأقوال العلماء المختلفة بإثبات وقوع العدوى لكن مع تنزيه الاعتقاد إسناد الحكم كله لله، وهو مطبوع طبعاً حجرياً بفاس كسابقيه.

ومنها نوازله الفقهية التي أجاب عنها السائلين بما عُرف عنه من سعة العلم والتنزل للموضوع بكل ما يلزم من التحقيق والاستيعاب وقد جمعها أخوه العلامة السيد التهامي وسماها وضوح الدلائل في أجود مهمات المسائل، وهي مطبوعة كذلك.

ومنها الدرة المكنونة في النسبة الشريفة المصونة أبدأ فيه وأعاد في فضل النسب الشريف وما يجب لأهله من التعظيم والاحترام وما يجب عليهم بمقتضاه من التخلق بالأخلاق الكريمة والبعد عما يشين النسب الشريف من الخصال المذمومة كما تعرض فيه للبيوتات الشريفة بالمغرب منوهاً بها ومشيداً بمكارمها مع النصح والتحذير من الغرور إلى غير ذلك مما لا يوجد في كتاب غيره، وهو في جزء مطبوع.

ومنها كتاب الزجر والإقماع بزواجر الشرع المطاع عن حضور آلات

اللهو والسماع، في جزء مطبوع، جنح فيه إلى ما ذهب إليه الجمهور الغفير من سلف الأمة وعلمائها وصلحائها من تحريم سماع الآلات الموسيقية لا سيما مع اجتماعها والغناء الذي يصحبها وكذلك المنفرد إذا كان مما يحث على اللهو والتصابي والفجور خاصة من الجواري والنسوان والمخنَّثين من الرجال، ولم يُسامح في السماع إلا لأصحاب الأحوال الصحيحة الذين يستعينون به على الذكر والذكرى والتفكر والاعتبار حاملاً على ذلك ما روي عن بعض الأفاضل من حضورهم لمجالسه وقولهم بجوازه، متحاملاً على من تساهل فيه من الأعلام كابن حزم وغيره، ومن المؤكد أن باعثه على تأليف هذا الكتاب كان سياسياً بالدرجة الأولى، نظراً لما كان عليه الوضع السياسي بالمغرب في وقته من الانهيار وهزيمة الجيش الوطني في حربين مُتَتَاليتين، مع فرنسا وإسبانيا في إيسْلي وتطوان وانشغال المسؤولين بالغناء والطَّرب حتى اعتُبرت تلك الفترة من الزمان عند المهتمين بالفن فترة إحياء للموسيقى الأندلسية ونهوض. ولا نحتاج إلى القول أن رأيه هذا كان مما يردده في دروسه على رؤوس الملأ، وإنه كان يمتنع من حضور الحفلات التي تقام في الأعراس وما يماثلها بمشاركة أجواق الطرب ولو كانت لأقرب الناس إليه حتى عرف عنه ذلك عند الخاص والعام، ولم يقتصر قوله به على التعبير عنه في كتاب لا يقرؤه إلا العارفون ويعد هذا الموقف من مواقفه السياسية والإصلاحية في آن واحد.

وقد أوعز المسؤولون إلى بعض من عاصره من أهل العلم بالرد عليه ولكنه لم يكن له أثرٌ ملحوظٌ في الأوساط العلمية. ومن المؤسف أن قلة من تلامذته هم الذين أخذوا برأيه هذا وكانوا يمتنعون من سماع آلات الطرب والسماع وهم فيما نعلم أخوه السيد التهامي والعلامة سيدي محمد بن جعفر

الكتاني والعم سيدي محمد بن التهامي والوالد رحمهم الله، إلا أن يكون هناك من لم نعرفهم ولا سيما من تلامذته المتفرقين في القبائل؛ وقد كان منهم رجال صدق وأنصار حق.

ومن كتبه في المواعظ والأخلاق كتاب التَّسْلية والسلوان، لمن ابتُلي بالإذاية والبهتان، وهو في مجلد مطبوع طبع حجر بفاس، جمع فأوعى، ولم يترك شاذة ولا فاذة مما ورد في الشرع والتاريخ والأدب من أخبار النبيئين والمرسلين، والصحابة والتابعين، وأئمة الدين، وعباد الله الصالحين الذين تعرضوا للأذى ووُجهوا بالمكروه من التهم الباطلة، والدعاوى الكاذبة والطعن والتجريح، والإرجاف في حقهم بما يصد عن دعوتهم، والوقوف في وجههم لمنعهم من أداء رسالتهم، وكأنه في هذا الكتاب كان يتمثل حاله مع الخصوم المناوئين له ويلتمس العزاء فيما أصاب من قبله من الدعاة والمصلحين، ومنها في هذا الصدد كتاب نصيحة النذير العريان، لأهل الإسلام والإيمان في التحذير من مخالطة أهل النميمة والغيبة والبهتان، في جزء مطبوع كذلك، ومنها في هذا المعنى أيضاً نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس، وهو عامر بالحكم والأمثال والنوادر والأشعار في الخلطة والخلطاء والصداقة والأصدقاء إضافة إلى مادته الأساسية من الأحكام الشرعية والمواعظ والآثار والأحاديث والأخبار، وهو مطبوع في جزء بفاس. وهذه الكتب الثلاثة تتقارب موضوعاً ولكنها لم تنسج على منوال واحد، بحيث يكرر بعضها بعضاً، بل إن بعضها يكمل بعضاً، وإن دل ذلك على شيء فأول ما يدل عليه هذا البحر من المعلومات الذي يغرف منه المؤلف والاطلاع الواسع الذي يقل له النظير، وخاصة في عصره وفي الموضوع الواحد الذي هو أبعد ما يكون عن

الفلك الذي يدور فيه الفقهاء ومنها رسالته المسماة بإيقاظ المفتون المغرور، مما تذم عواقبه يوم النشور ركز فيها على النصح للعلماء خاصة، وذكر ما كان عليه علماء السلف من الجدّ والاجتهاد والحرص على نفع العباد ومُقارنة أحوالهم بأحوال علماء عصره قائلاً في تصديرها.

وبعد فإنما المقبول المنقول بشرط أن يكون في محله غير محرف عن موضعه، وغيره بأجمعه محضر فضول وتضييع للقائل والمقول، ولم يتفرغ أهل الجد قطّ ولا يتفرغون عَوْضُ للعمل المعلول.. الخ. وهي مطبوعة بالمطبعة الحجرية بفاس ومنها اختصاره لرسالة العجيمي في الطرق الصوفية الموجودة في عصره، ومنها ختمه لمختصر الشيخ خليل مطبوع في بعض ملازم وقد ذكر العلامة المشرفي أنه شهد ختمه للمختصر الذي دام ثلاثة أيام كل يوم كانوا يقولون إنه يوم الختم فكان يجلس من الصباح إلى قرب الزوال وهو يملي من حفظه ما يبهر العقول وينهي المجلس ويعد بالختم غداً ثم يفعل مثل اليوم الأول ولم يختم إلا في اليوم الثالث وكل يوم كان الناس يزيد عددهم ويكثر تأثُّرهم بما يسمعون من المواعظ والرقائق فيبكون ويصرخون من الجد.

ومن كتبه العلمية التي لم تكمل شرح مختصر ابن فارس المعروف في السيرة النبوية أطال فيه ما شاء، ومنها حاشيته على شرح الشيخ التاودي بن سودة لجامع الشيخ خليل الذي جعله تكميلاً لمختصره الفقهي، وهو كتاب جليل في الآداب والأخلاق الإسلامية، وكان بعض العلماء يقرأه بعد ختم المختصر مباشرة، ومنهم الشيخ، إذ يرون أن فائدة العلم بالأحكام الفقهية لا تحصل إلا إذا صحبها العمل بالسنن والفضائل التي هي جوهر الإسلام، ولذلك ختم ابن أبي زيد رسالته الفقهية بباب من هذا القبيل هو لب الرسالة

وثمرتها تصحيحاً لعلم الطالب وتقويماً لسلوكه، وجامع الشيخ خليل من هذا الباب، وحاشية المترجم على شرحه للشيخ التاودي في مجلد تطفح بالعلم الرباني والتجربة الخلقية العالية تأصيلاً لما تضمنه المتن والشرح وتكميلاً لها.

ومنها حاشية على شرح الشيخ السنوسي لصغراه حافلة بالأبحاث والنقول، ومنها شرح على همزية الإمام البوصيري في السيرة النبوية عالي النفس واسع الأفق يجيء ما كتبه فيه على البيت القائل:

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

في تأليف جامع لمباحث الرؤيا وأحكامها ومنها نزهة الألباب والإسماع في الحض على الذِّكْر الشرعي النافع بالإجماع، والتحذير من الرقص وسماع أهل الذنوب والابتداع، وهذا الكتاب كمله أخونا الفقيه المحدث السيد عبد الحفيظ جزاه الله خيراً، ومنها تكميل بترات حاشية الشيخ ابن زكري على صحيح البخاري، لكن بعض هذه البترات هي من عمل أخيه الشيخ التهامي، وبهما كملت الحاشية المذكورة وطبعت بفاس في خمسة مجلدات.

ومن رسائله في السياسة وشؤون الحكم رسالة في التحذير من الإقامة بأرض العدو، وأخرى في التحذير من تولية الجهال ووجوب عزلهم وإبعادهم عن تدبير أمور المسلمين، وثالثة في التحذير من الازدراء بالعلماء وتنقيصهم والأمر بتعظيمهم واحترامهم، ورابعةٌ في أحد المسؤولين الكبار المسمى بعبد الله وعنونها (بعبضل) وسأله الملك عن معنى هذا العنوان فقال له أنه عبد ضل وحاشا أن يكون هذا عبداً له، وخامسة في أهل الحماية وخروجهم عن جماعة المسلمين بناها على أحد شرفاء المغرب الذي احتمى بدولة أجنبية مدعياً أن

باعثه على ذلك دفع الظلم الذي كان يتوقع نزوله به من السلطان ولكن الشيخ رد التعلل بأنه من ذوي العصبية التي لا يمكن معها أن يصيبه مكروه، كيف وبيته ممن يجير الناس من السلطة حتى ولو كانوا مجرمين، ومنها رسالته في إبطال التسرِّي والحكم بأن ما عليه الناس من اتخاذ الولائد المُجْتَلَبِين من السودان وغيره هو محض زنى.

مواقفه وأفكاره الإصلاحية:

يمكننا من التأمل في قائمة كتب الشيخ ورسائله أن نعرف مواقفه من قضايا مُجتَمعيه وأفكاره الإصلاحية التي نادىٰ بها طول حياته في دروسه وكتاباته، وهي مجمل دعوته التي تُبَلْوِر في لبها وجوهرها دعوة الإسلام الصحيح؛ فهو لم يأت بشيء جديد من عنده، إنه كما قلنا فقيه مالكي ملتزم بمذهب إمام دار الهجرة، كما كان كل المصلحين قبله: ابن تيمية وابن القيم والشاطبي والطرطوشي وابن الجوزي وزرّوق وابن عبد الوهاب ومحمد عبده وغيرهم كانوا متمذهبين بأحد هذه المذاهب السُّنِّية، ويدعون إلى تطبيق الشريعة في المعاملات والسلوك ومجانبة البدع والأهواء، وكذلك كان الشيخ يدعو الناس إلى اتباع السنة ويشتد على المخالفين، ويقف منهم مواقف جادة أدت إلى إيذائه والانتقام منه على الصعيدين العام والخاص، كما أوذي من سبقه أو لحقه من المصلحين. وهذا فَرْقٌ ما بينه وبين معاصريه من العلماء الذين كانوا يعلمون ما يعلمه ولكنهم لم يتجرأوا وينكروا ما ينكره.

إن العهد كان قد بعد جداً بظهور عالم في المغرب على سنن الأئمة الناطقين بالحق، الذابِّين عن الشريعة المحمدية باللسان والقلم والحال، عالم

من ورثة الأنبياء، اتخذ العلم وسيلة للدعوة إلى الله وصراطه المستقيم ولم يجعله وسيلة للإثراء ومواطأة الظالمين على ظلمهم، إنه عالم عامل ومصلح حقيقي ومُجَدِّد كما وصفه بذلك غير واحد من مترجميه، لقد كانت دعوته إلى اتباع السنة ومحاربة البدعة قوية صارخة بحيث اشتهر بها وعرفت مواقفه فيها ضد أصحاب الطرائق المحدثة والطوائف الضالة؛ فكان صاعقة عليهم لا يفتأ يندِّد بهم ويشنِّع عليهم وينتقد أحوالهم ويبيِّن مخالفتهم للكتاب والسنة، ومُحادثتهم لله ورسوله بما يرتكبونه من الفسوق والمروق، ويتظاهرون به من الولاية والصلاح، حتى أنه كان إذا رأى أحد المُتفرِّقة واضعاً المِسْبحة في عنقه نزعها منه بيده وأنكر عليه هذا التظاهر وقال له إذا كنت ذاكراً فلا تعلن لنا عن نفسك، وإن السلف الصالح لم يثْبُتْ عنهم شيء من ذلك، وربما نزل عن الكرسي في مجلسه العلمي وقصد إلى من لمح عليه التلبّس بمنكر من المنكرات فغيَّره بيده ورجع إلى مجلسه وأبدأ وأعاد في ذكر ما ورد في البدع والمحدثات من العقاب والوعيد لأصحابها. وكان إذا مرَّ بأهل الحضْرة - كما يسمونها - وهي الرقص حالة الذكر، هجَم عليهم وفرَّقهم وأمر بإفراغ الماء على المكان الذي كانوا يرقصُون فيه وقال أنه تنجس بهذه البدعة الإسرائيلية وأول من فَعلها هو السامريّ لعنه الله.

وألَّف في تحريم السماع كتابه المشهور الزجير والأقماع وقد أسْلَفنا ذكره، وكذا كتابه نزهة الألباب والأسماع - على أن كتبه الأخرى كلها حافلة بهذه الدعوة، وقصته مع أحد طلبته وهو العلامة شيخ الجماعة سيدي أحمد بن الخياط شهيرة؛ وذلك أنه تخطفته إحدى هذه الطرق فانقطع عن الدرس، فكتب الشيخ إلى قاضي الجماعة بفاس يقول إن ها هنا طالباً ظهرت نجابته

وجادت قريحته وأصبح طلب العلم في حقه واجباً عيْنياً لا كفائياً، وقد استمالته إليها إحدى الطرق المنتسبة إلى التصوف، فيجب إجْبارُه على الرجوع لطلب العلم والاشتغال بما هو أنفع له وللمسلمين، وأنتم أولى بنصحه ورده إلى الصراط المستقيم، فهل عُرف في التاريخ من يحمل الناس على طلب العلم بسلطة القضاء؟.

وقام الشيخ بدعوة أخرى كان لها وقع عظيم في أوساط الولاة والمترفين. وهي قوله ببطلان التسرِّي على ما كان عليه من اختطاف بنات القبائل وأبنائها الصغار، ولا سيما السوادين وبَيْعهم على أنهم أرقاء، فتُنكح إناثُهم بما يسمى ملك اليمين، مصرحاً بأن هذا النكاح فاسد، وأن ما ينشأ عنه من ذرية وما يبنىٰ عليه من أحكام الرقيق كله غير شرعي وباطل لأنه واقع في غير موقعه، ومُنزَّل على خلاف ما ورد في أحكام الشريعة، وأن من شاء السلامة والاستبراء لدينه وعرضه فعليه أن يعتق الرقيقة من هذا القبيل ويستبرئها ويعقد عليها بصداق ونكاح شرعي صحيح، ولا يجوز أن تكون زائدة على الأربع التي أحلها الشرع وإلا كان نكاحها والزنىٰ سواء من باب لا فرق يقرر ذلك في مجالسه العلمية ويجهر به وينكر على من يفعله أشد الإنكار، مُبيناً أن ملك اليمين لا يكون إلا من المسترقِّين في الحرب مع الكفار لا غير، وهؤلاء من المسلمين معتدى عليهم بالاختطاف، فامتلاكهم لا يصح وأحرى نكاح إناثهم بملك اليمين، وينشد في ذلك من نظمه:

جلُّ أرقاء السوادين أعلما حر، كما ثبت عند العلما

وقد ضاق بدعوته هذه أبناء الإماء والكبراء وذوُو الجاه الذين كانت

دُورُهم وقصورُهم تعج بالإماء المستولَدات والبنين والبنات المتكونين من هذا النكاح، ورَمَوْهُ بالفظائع وطعنوا في عِرْضه وسبه، وكثرت الشكاية من الشيخ فاستُدعي من طرف الوالي وبلغه استياء أولي الأمر وعموم الناس من هذه الحملة التي تمسُّهم في دينهم وأعراضهم، وأن عليه أن يكف عن قوله هذا ولْيسعه ما وسع غيره من العلماء، فبين له الشيخ مُدْرَك هذا الحكم وأدلتَه من الشرع، وإن حكم أولي الأمر أن يغيروا هذا المنكر ويمتثلوا في أنفسهم ويأمروا غيرهم بالامتثال لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴾ فجعل الوالي يناقش الشيخ، فأغلظ له الشيخ القول ورد عليه بأن العلم ليس شغله، فقال لأعوانه خذوه إلى السجن فقال له الشيخ: نعم هذا شغلك!.

وما إن شاع خبر سجنه في المدينة حتى عمها الاضطراب وخصوصاً في أوساط العمال والحِرْفيين والطلبة وغيرهم وقاموا بمظاهرة عظيمة هي الأولى من نوعها في مغرب أمس كما سبق القول، احتجاجاً على اضطهاد قادة الرأي من أهل العلم وكبْت الحرية الفكرية، فصدر الأمر بتسريح الشيخ فوراً، وكان عالم فاس الشيخ المهدي ابن سودة ممن استنكر فعل الوالي وكتب إليه بذلك، وهكذا أخرج الشيخ من السجن محمولاً على الأعناق وعاد إلى منزله معززاً مكرماً وتقاطرت الوفود إليه من مختلف الطبقات مهنئة وشادّة أزره، فأصبح أقوى شكيمة وأصلب عوداً مما كان عليه من قبل، لما رآه من تضامن الناس معه ومناصرتهم له، وإلى ذلك يشير مؤرخ المغرب العلامة الناصري في كتابه الاستقصا بقوله: «وكان رحمه الله فقيهاً عالماً متضلعاً قوالاً بالحق دعابة لا يهاب في ذلك كبيراً ولا صغيراً، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يَفُلَّ

ذلك من عزمه، ولم يُوه من حدته وصرامته».

وموقف آخر كان للشيخ فيه قدم صدق وانفرد كذلك برفع رايته في وقته، وهو الاعتراض على الولاة الظَّلمة وإنكار أعمالهم وانتقاد تصرفاتهم بكل صراحة وغلظة وتشنيع، ويتجسد ذلك في الرسائل التي كتبها ضدهم وفيها الوزير ورجل السلطة والمكلف بمهمة كخليفة الوالي الذي وكل إليه أمر التجنيد فكان يتلاعب به حسب مصالحه الشخصية، وفي غير ذلك مما كانت تمليه عليه الغيرة الدينية والاهتمام بقضايا الشعب والنصح لمن والاه الله على الأمة الذي هو من أجب الواجبات على عموم المسلمين فكيف بالعلماء.

ومواقفه من هذا القبيل مما يطول تتبعه، والناس تحكي منها الغرائب فلنكتف بما ذكرناه، ويهمنا أن نُمحِّص موقفه من التصوف كما فعلنا في موقفه من السماع. فهو لم يكن ينكر التصوف من أهله، كيف وهو لا يفتأ يستشهد بكلام أئمته كالجُنَيد والقُشَيْري صاحب الرسالة والغزالي وغيرهم، ولكنه كان ينكر على أهل الأحوال الكاذبة والدعاوى الباطلة، والمتمشيخين من غير علم، والمتصوفين مع سوء السلوك، وكان اهتمامه بالباطن أكثر من الظاهر، وبالأعمال قبل الأفعال، ومما كان يقوله ازدراءً على المتَفرِّقة الذين يتعاطون النشوق: «الفضيحة كل الفضيحة، السَّبْحة والتنفيحة» وكثيراً ما كان ينشد فيهم قول صاحب المباحث الأصلية:

قولُ الفقير أنني فقير | إلى الظهور أبداً يشير

وخلاصة القول إنه كان يخضع التصوف للفقه من غير عكس، فمدرستُه فيه هي مدرسة ابن الحاج صاحب المدخل والمرجاني وابن أبي جمرة ومن

أتى بعدهم وكان على هذا النهج مثل زروق وابن ناصر ومن خزانته خرجت النسخة التي طبع عليها كتاب المدخل أول ما طُبع. ويدل على ذلك مسلكه في كتاب الاختصار من تطريز أبواب الفقه بما ورد في الكتاب والسنة متعلقاً بكل باب، وتنزيل أحكام المسائل على مقتضى الشرع، من تصحيح الأعمال بالنيات واتباع السلف الصالح.

ونخرج من هذا إلى أخذه بالسنة ولو خالفت المذهب كترجيحه للقول الذي يوافق الحديث وإن كان ضعيفاً وقوله كما سبقت الإشارة إليه بالجهر بالبسملة لأن مخالفة المذهب حاصلة بالأسرار فيها فلا معنى له، وسكوته عن تأييد المسناوي للقبض وعدم التعرض لكراهيته، وتأييده لسنة السكوت في تشييع الجنازة على ما ذهب إليه الرهوني بعدم رده عليه وقوله بالتنفل بين الأذان والإقامة على ما جاء في السنة وغير ذلك من الجزئيات التي يمكن استخراجها من الاختصار وغيره من كتبه.

ومن المهم أن نذكر أنه ولي القضاء بمراكش وأنه اعتذر عن القبول وتعلل بكل العلل، فلم يقبل منه عذر ولا سومح في ذلك، فقال له شيخه ابن عبد الرحمن الحجرتي: أقبل وأذهب وأحكم بالشريعة ولا تخالف شيئاً مما تعرف من شروط الخطة فإنهم يعفونك سريعاً وهكذا قدم إلى مراكش، وجاءه عدول المحكمة يسلمون عليه ويرحبون به فقال لهم من أنتم قالوا العدول فقال لهم: أنا غريب عن هذا البلد وعدالتكم عندي غير ثابتة ولا أعرفها فأتوني بما يثبتها لأتعامل معكم وأقبل شهادتكم فأحدث كلامه هذا رجة في نفوسهم، وخرجوا من عنده يتلاومون، وذهبوا إلى القاضي الثاني، وكان في مراكش قاضيان اثنان، فقال لهم: لا عليكم أنتم مقبولون عندي فلا ترجعوا إليه.

وكذلك فعل مع ناظر الأوقاف لما جاء للسلام عليه قال له بناء على ما مقرر في كتب الفقه فإن الأوقاف لنظر القاضي ومتوليها تابع له وعليه فيجب أن تحضر لي الحوالة الحبسية ودفاتر الحسابات ولا تبرم شيئاً بعد الآن إلا بمشاورتي وموافقتي، فخرج الناظر وهو لا يقضي العجب من هذا القاضي الذي لم ير مثله من قبل.

وراجع الوالي الجهات المسؤولة في الأمر، وبقي الشيخ لا ينظر إلا في الدعاوي التي أزمنت أو التي كان أصحابها يخافون من التلاعب بها، فهم يرفعونها إليهم علماً بأن القاضي الجديد ممن اشتهر بالاستقامة والدين المتين فلعله يفصل فيها بما يجب، ولما كان يتوقعه من عدم الموافقة على السيرة التي سلكها وتشوفه إلى العودة لبلده كتب للوزير الأول يستقيل من هذه الولاية التي لم يخلق لها على حد تعبيره، ويطلب الرجوع إلى أهله وطلبته ودروسه العلمية ومدينته فاس التي ألف العيش فيها وألفته وأنه في مراكش غريب ضائع يخدم نفسه بنفسه، وفي مثل هذه الحال يجوز له أن يُقيل نفسه كما نص عليه الفقهاء إن لم تقبل استقالته فلم يلبث أن جاءه الإعفاء والإذن برجوعه إلى فاس.

ولا يستغرب هذا من فعله فالرجل كادت أحواله تكون غريبة بالنسبة إلى أهل عصره، وقد قلت شبه هذا الكلام لأخينا العلامة المرحوم سيدي الجواد الصقلي حين أبدى لي تعجبه من تشديد الشيخ فبينت له أن ما كان عليه الشيخ لا يُعدُّ تشديداً إلا بالنسبة لعصرنا، ولفت نظره إلى ما يقوله الناس عنه هو بالذات من حيث تدينه والتزامه فهل يعتبر متشدداً هو الآخر؟.

إن الحق في زمن الباطل لا أنصار له، ولكن المصلحين في كل زمان

يعملون على نصرته، ولا يبالون بما يلاقونه من المبطلين على كثرتهم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

وفاته:

قال العلامة المشرفي في كتابه (الدر المكنون) كان ابتداء مرض شيخنا قدس الله روحه في يوم الجمعة مفتتح شوال سنة ثنتين وثلاثمائة وألف وذلك أنه لما صعد المنبر للخطبة بجامع أبي الجنود وشرع فيها أصابته حالة لم يقدر معها على إتمام الخطبة قائماً فكملها بالجلوس ثم لم يزل به كذلك بعض الضرر وتفاقم الأمر واشتد عليه المرض حتى كان آخر يوم من ذي القعدة وهو يوم الخميس فاحتُضر وخرجت روحه رحمه الله وهو محاط بالعلماء والطلبة وكثير من الناس وذلك ليلة الجمعة مهل ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة واجتمع لجنازته ما لا يحصى من الخلائق وأراد طلبة العلم أن يحملوا نعشه فمنعهم أخوه وارث سره العلامة سيدي التهامي فحمله الحمالون المُعدّون لذلك إلى جامع الأندلس حيث صُلِّيَ عليه ثم حُمل إلى مقبرة القِباب خارج باب الفتوح في حشد من الخلائق يُستغرب وجوده بفاس، وكُسِر نعشه وتخاطفه الناس تبركاً به، كما كُسِر النعش تحت مولاتنا عائشة وسالم بن عبد الله وغيرِهما رضي الله عنهم. (انتهى باختصار كثير).

أثره:

سبق أن ذكرنا أسماء كتبه ورسائله ونقدم فيما يلي بعض أنظامه العلمية فمنها قوله فيما يوجب الكفر:

ولا تكفِّرَنْ إلا بالشَّرع ... وضابط التكفير فيه مرعِي

وهو اعتقادُه أو التكذيبُ، ... بِبَعض ما جاء به الحبيب
أو التهيُّؤُ بهيئة الكفار ... كحمل صَالِبٍ وعقد زُنَّار

ومنها قوله فيما تصير به الصغيرة كبيرة:

صغيرة تكبُر بالإصرار ... أو فرحٍ بها أو افتخار
أو عدم استحيا أو استصغار ... أو كونها من قدوة يا قَارِ

وقوله بتعريف الإخلاص:

حقيقة الإخلاص أن لا تطلبا ... شاهداً غير الله منه فارهبا
وقيل الإخلاص تصفية العمل ... من الكَدُوراتِ فجنّب الخلل
وقيل إنه من أسرار الإلاه ... يودعه فيمن أحب واصطفاه

ومنها قوله في العمل الصالح:

وفَسَّرَنَّ صالحَ الأعمال ... بجامع لهذه الخصال
العلمِ والنية والأخلاص ... والصبرِ ليس عنه من مناص

وقوله:

وضرب كل ذي حياة محترم ... حرام إجماعاً فَعَم الحُرَم
وضربه الوارد في الأخبار ... بقصد تأديب بلا إضرار

وقوله في تعريف السِّتْر الجميل:

ثم العناية بلا رجال ... مع الغِنى بغير ما أموال

وبعد ذا دخول الجنَّة بلا … عملٍ هو السِّتْرُ فَلْتَبْتَهِلا

وقوله:

وبالمخالفة للشيطان … عداوُهُ لا اللَّعنِ باللِّسان

وقوله في مخالفة الإجماع:

وكلُّ من خالف بعد الإجماع … فهو محجوج به بلا نزاع
إذ خرقهُ حرام باتفاق … لآية الترهيب في الشقاق
ولحديث أمَّتي لا تجتمعْ … على ضلال فاتَّبِعْ لا تَبْتَدع

وقوله:

وتعْظُم الطاعة والمعصية … بالوقت والمكان والوصفية

وقوله في الصور:

وليس في الصُّوَر ما يُخَفَّفُ … إلا بفرشٍ بامتهان يوصف

وقوله في شروط الأخذ بالعمل:

الشَّرْط في عَمَلِنا بالعمل … ثُبوتُهُ عن قِدْوَةٍ مُؤهَّل
معرفةُ الزمان والمكان … وجود موجبٍ إلى الأوان

وقوله:

ثلاثَة عملها يسيرُ … وأجرها عن النبي كبيرُ
تقديمك النعلَ وإمساكُ الإنَا … كذا الرِّكاب كن بِهِنَّ مُعْلِنا

ومنها قوله وهو خلاصة رسالته في التسَرِّي بمِلْك اليمين من غير الكفار:

جُلُّ أرقّاء السَّوادِين أعلَما ... حُرٌ كما ثبت عند العلما

ودين غالبهم الإسلام ... لذا تَمَلُّكهمُ حرام

وبعد عتق ثم عقد شرعي ... إناثهم تُنكح حسْب المرعِي

مِلْك اليمين لا يُحِلُّ بُضُعاً ... منهن إلا بصداقٍ فَآرْعا

وَهْي من الأربَع حقاً تُحسبُ ... ومن تَعدَّى فهْو عاصٍ مذنِبُ

يا عَجَباً كيف يباع المسلم ... ويُسْتَبَاحُ عِرضه ويُظلم

وأعْجَبُ العَجَبِ إشهادُ العدول ... عليه بالبيع وسائر الفصُول

فنسأل الله الذي أَلْهَمَنا ... ينفعنا بكل ما عَلَّمنا


عبد الملك المعتصم

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٢ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٢٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقياً : كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No : 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX : (202) : 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت ٨٦٠٧٩٢١ - ٨١١٥٦٣ - ص ب ٨٣٣٠ / ١١

برقياً « دكالبان »

TELEX : DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



45

عبد الملك المعتصم

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

عبد الملك المعتصم

نشأته وتكوينه، اغترابه بالجزائر حذراً من غدر عمه به ـ قتاله بجانب الجيش العثماني في تونس ـ مكافأة السلطان العثماني له بإعانته على دخول المغرب ـ فرار ابن أخيه المتوكل واحتماؤه بملك البرتغال ـ معركة وادي المخازن الشهيرة ـ النصر الحاسم ـ المعركة في الميزان ـ وفاته.

هو رابع أولاد السلطان السعدي محمد الشيخ الملقب بالمهدي، وأحد من ولي الملك منهم، وكان هذا السلطان منجباً أرسى قواعد الدولة السعدية بعزيمته وأولاده الأنجاد الذين كانوا يشدون عضده ويسعون في نجاح أغراضه، فأكبرهم وهو محمد الحران كان شجاعاً شهماً يتقدم للحروب ولم يفتح لأبيه من البلاد إلا ما فتح على يده كما يقول الأفراني، وعبد القادر كان وزيراً لأبيه، وهذان توفيا في حياة والدهما، وعبد الله الغالب، وصاحب الترجمة، وأحمد المنصور المعروف بالذهبي ثلاثتهم ولوا الملك، وعثمان، وعبد المؤمن، وعمر، ولهم جميعاً ذكر في التاريخ.

وحكى العلامة المنجور أنه كان يوماً بمجلس السلطان محمد الشيخ هذا، وقد حضر عنده أولاده الصناديد محمد الحران وعبد الله وعبد القادر فدخل الشيخ أبو عبد الله اليسيتني فلما نظر إلى بنيه حواليه أنشد هذا البيت وهو من شعر الفرزدق:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بني حوالي، الأسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده.

ويكنى المترجم أبا مروان، ويلقب بالغازي، وهو من الألقاب التركية، كما يلقب بالمعتصم بالله، وهو من ألقاب الخلفاء، وبه شهر، ويعرف عند العامة بسيدي ملوك.

من الواضح الجلي أن البيئة التي نشأ فيها مترجمنا كانت بيئة عمل وجد واجتهاد لتوطيد أركان الدولة ومقاومة خصومها الداخليين وأعدائها الخارجيين، وأن عميدها الذي هو محمد الشيخ كان قدوة أبنائه وأسوتهم في النضال والسعي من أجل تحقيق الأهداف العليا لقيام دولتهم وبروز أسرتهم على مسرح التاريخ.

وأول هذه الأهداف هو توحيد الصفوف وجمع الكلمة لمكافحة الاحتلال الأجنبي وتطهير الشواطىء المغربية من رجسه. فقد كان البرتغاليون وهم في أوج عظمتهم، اهتبلوا فترة الضعف الذي طرأ على الدولة المغربية فهاجموا مدن سبتة والقصر الصغير وأصيلا وطنجة واحتلوها كما احتلوا حصن فونتي في الجنوب وآسفي وأزمور والجديدة، واحتل الإسبان مدينة مليلية، وكان القصد هو تطويق المغرب وإيجاد حزام للسلام في الثغور المغربية نفسها يحمي الجزيرة الأيبيرية من هجوم المسلمين ومحاولتهم العودة إلى الفردوس المفقود.

ومع أن قيام الأشراف السعديين إنما كان لدرء عادية العدو البرتغالي على الجنوب وإقليم سوس بالخصوص، فإن نجاحهم في طرده من حصن فونتي والضغط عليه حتى انسحب من آسفي وأزمور فتح لهم باب الأمل في مد حركتهم الجهادية إلى الشمال وهذا كان يقضي عليهم بمنازلة أواخر ملوك بني

وطاس وتصفية دولتهم، وكل ذلك تم على يد السلطان محمد الشيخ المهدي الذي وحد المغرب تحت راية السعديين شمالاً وجنوباً، وطرد البرتغاليين من أصيلا والقصر الصغير كما طردهم من الثغور الجنوبية بحيث لم يبق بيدهم سوى طنجة وسبتة والجديدة. ففي هذه المدرسة تخرج عبد الملك ومنها درج، وبأحداثها تمرس، وعلى وقائعها ضبط أمر الملك وتدبير الدولة. . وأما الشؤون الإدارية فقد باشرها وهو وال على إقليم تافيلالت من قبل والده وتكون التكوين المطلوب فيها.

فقد كان والده لما استتب له ملك المغرب، أمّر أرفع أولاده عنه وأعزهم لديه وهو مولاي عبد الله على فاس كما في تاريخ الدولة السعدية المجهول المؤلف، وأمر ولده مولاي عبد المؤمن على مكناس، وأمر ولده مولاي عبد الملك على سجلماسة وأصحبه أخاه مولاي أحمد، ومن هنا نشأت الصلة المتينة وما طبعها من حسن التفاهم بين الأخوين عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور، ثم زادها قوة اغترابهما في الجزائر أيام ملك أخيهما عبد الله الغالب، كما سنبينه، وكان ذلك الاغتراب فرصة أيضاً لتكميل تكوينهما وفتح آفاقاً جديدة من المعرفة أمامهما، ولا سيما بالنسبة لعبد الملك الذي تعلم التركية والإيطالية إضافة إلى الإسبانية التي ربما كان قد تعلمها في المغرب، ونعلم من ذلك أن مترجمنا ذو شخصية قوية صاغتها التجارب وصقلتها تقلبات الأحوال، ولعل ما استفاده من سيرة والده، خصوصاً في حركيته الدائبة وتصديه للغزاة الأجانب كان من أعظم مقوماته الذاتية.

تغرب المترجم هو وأخوه أحمد بالجزائر أيام أخيهما عبد الله الغالب، وكأنه آنس من جانبه سوءاً أو من ابنه محمد الذي كان خليفته على فاس، كما

كان هو خليفة لأبيهم عليها، وتقدم قول المؤرخ المجهول لدولتهم في عبد الله أنه كان أرفع أولاد محمد الشيخ عنده وأعزهم لديه ومثل ذلك يقال في حق عبد الله بالنسبة لولده محمد الذي قدمه على إخوته واستخلفه على فاس ولئن كان عبد الملك توجس خيفة من أخيه عبد الله وولده محمد، فلأن استفادته من تصرفات والده كانت عامة، وفي حالة الإيجاب والسلب على السواء، فهو قد رأى ما فعل والده بأخيه أحمد الأعرج الذي كان أكبر منه وأسبق إلى الولاية، فأزاحه عنها وتقبض عليه وبقي رهن الاعتقال إلى أن قضى عليه محمد ابن أخيهما عبد الله حين اغتيل والدهم محمد الشيخ بيد الأتراك، وكان عبد الملك وأخوه أحمد إذ ذاك بالجزائر لاجئين فلحق بهما أخوهما عبد المومن، عند اغتيال محمد ابن أخيهم عبد القادر فيما يظهر، وكان هذا قد تصدر في أيام عبد الله وهو وال على مكناس وحسن تصرفه ومالت أشياخ القبائل إليه بحيث لم يكن لمحمد بن عبد الله والي فاس ظهور معه، فلما رأى ذلك عبد الله الغالب خاف من مزاحمته أو مزاحمة ابنه على الملك فغدره وقتله، وهكذا كان دم الأخوة عند السعديين هدراً، فمن حق مترجمنا أن يخاف على نفسه بل من حصافته وأخذه بالحزم أن يفر إلى الجزائر حيث يأمن غدر أخيه أو ابن هذا الأخ الذي بدأت جرأته على الدماء تظهر منذ أول يوم من ولاية أبيه.

وتظهر لنا شدة حذر عبد الملك من مراحل اغترابه، فهو أولاً لجأ إلى تلمسان، ثم انتقل إلى الجزائر، ولما استدف أمر السلطنة لأخيه عبد الله وظهر منه ما ظهر، لجأ إلى اسطنبول ومعه أمه سحابة الرحمانية فاستقر في كنف السلطان العثماني مؤملاً أن يمده بما يعينه على دخول المغرب وزحزحة أخيه عن العرش، ولكن عبد الله كان على صلة حسنة بالعثمانيين وقد أصلح ما أفسده

والده معهم، فلم يجبه السلطان العثماني إلى طلبه، لكن لما بلغ عيث الإسبان بتونس أشده، وفكر السلطان سليم الثاني في توجيه حملة عسكرية لفتحها وطرد الإسبان منها انتدب عبد الملك لمرافقة الحملة التي كان على رأسها الوزير سنان باشا، قال المؤرخ المجهول لدولتهم: «وذهب معه مولاي عبد الملك (بفرقاطة) كانت عنده من ثمانية عشر مجدافاً، وكان معه بضعة وثلاثون رجلاً فقط» قال: «ورأيت رجلين من القوم الذين كانوا مع مولاي عبد الملك في حلق الوادي أحدهما كراوي من طريانة، حومة بطالعة فاس البالي اسمه عبد الله، والآخر مكناسي اسمه عبد الرحمن، وحدثاني بحقيقة الخبر وكيف كان القتال في البر والبحر».

وبعد أن أشار المؤرخ المذكور إلى النصر الحاسم الذي حققته الحملة على الأسبان وبقايا الحفصيين الذين احتموا بهم، ذكر تشوف السلطان إلى أخبار الحملة وأنه كان آناء الليل وأطراف النهار يراقب البحر، وأن الغزاة الأتراك جهزوا ثلاثة مراكب بحرية لإبلاغ خبر الفتح إلى السلطان وقال: «عند ذلك جاء مولاي عبد الملك إلى أصحابه الذين كانوا معه وقال لهم اخرجوا بهذه (الفرقاطة) إلى اصطنبول واذهبوا بكتابي إلى أمي بدار السلطان وادفعوه لها إن سبقتم المراكب الثلاثة وإن سبقتكم فلا تدفعوه لها وأوصاهم على الحزم والعزم فساروا ليلاً قبل سفر مراكب السلطان وجدوا إلى أن وصلوا قبل هذه المراكب ودفعوا الكتاب إلى أم مولاي عبد الملك فسارت مسرعة إلى السلطان فوجدته على ظهر (السراية) يراقب البحر فدنت منه بالأمر وبشرته بالفتح فقال لها: ومن أين لك بهذا؟ فدفعت له الكتاب فبقي متحيراً طول ليلته ومن الغد إلى العصر وصل أحد المراكب الثلاثة فوجد الخبر كما أنهته إليه أم مولاي عبد

الملك وكان هذا سبباً في إنجاز طلبه السابق بإصدار الأمر إلى والي الجزائر ليساعد مولاي عبد الملك على استرجاع ملك أبيه بالمغرب». . . الخ.

وكان فتح تونس في ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨١ كما في تواريخها وتواريخ الدولة العثمانية وذلك قبل وفاة عبد الله الغالب بنحو خمسة أشهر، لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة ٩٨١ وقد لاحظ ذلك المؤرخ الناصري واستشكل ما ذكره المؤرخون من أن رحلة عبد الملك إلى اصطنبول كانت بعد وفاة أخيه عبد الله وتولي ابنه محمد، فإن ذلك لا يصح إلا على القول بأن فتح تونس كان عام ٩٨٢ وهو ما في التاريخ المجهول المؤلف الذي يظهر أن الأفراني اعتمد عليه في ذلك كما اعتمده في كون السلطان الذي استنجد به عبد الملك هو السلطان مراد وكل ذلك لا يصح وما ذكرناه بالاعتماد على المؤرخ المذكور مع تصحيح التاريخ واسم السلطان بمراجعة التواريخ العامة هو الذي يحل استشكال صاحب الاستقصا، على أن ثمر روايات أخرى في كيفية استنجاد عبد الملك بالسلطان العثماني وقد اقتصرنا منها على الرواية الشهيرة.

عادت السيدة سحابة الرحمانية أم عبد الملك إلى الجزائر، ومعها (فرمان) السلطان إلى والي الجزائر يأمره بتجهيز فرقة من الجيش التركي لمساعدة عبد الملك على استرجاع ملك أبيه، وهكذا أدت هذه السيدة مهمتها كما يجب وسجلت اسمها في تاريخ المغرب بشرف وكانت من أهم العوامل على نجاح قضية ابنها الذي أعطى المثل على أنه في مستوى الأحداث الجسام التي تعيشها بلاده، بحيويته وشهامته واستغلاله لجميع الظروف المواتية والفرص السانحة، وقد حدثت بالمغرب في مدة غيابه أحداث مهمة رجحت كفة ترشيحه

وأهليته للملك، وأعظمها موت أخيه عبد الله الغالب وتولية ابنه محمد الذي تلقب بالمتوكل وهو ابن أمة وكان متكبراً متعجرفاً ومع ذلك فإن أباه كان يقدمه حتى على أعمامه وجعله خليفته على فاس متجاوزاً بذلك ما استقر عليه العرف في هذه الدولة من تقديم الأكبر سناً على من دونه كما كان الحال في دولة آل عثمان ولعل هذا مما حمل سلطانهم على مساعدة عبد الملك بالإضافة إلى لجوئه إليهم وخدمته لدولتهم. وتقدم المترجم (بالفرمان) إلى والي الجزائر فقال له: وأين المال لتجهيز الجيش؟ فقال له: أسلفني وعليّ القضاء، فبعث معه أربعة آلاف جندي واتفق معهم على أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة. وفي التاريخ المجهول المؤلف أن تكلفة تجهيز الجيش بلغت خمسمائة ألف، يعني مثقالاً، وأن وزن المثقال يجيء أربع أواق ونصفاً من الذهب. وسار الجيش حتى بلغ ناحية فاس من غير أن يلقى في طريقة أية صعوبة وكان عبد الملك يراسل وجوه الدولة ورؤساء الجنود، وكانت قلوبهم معه على ابن أخيه، فلم يشعر هذا إلا وقد أطبق عليه عمه مع الجيش التركي فخرج لمقابلته، فمال معظم رؤساء جنوده إلى عمه ووقعت الكرة عليه، ففر إلى مراكش ودخل عبد الملك فاس فبايعه أهلها وأقام بها أياماً ودع فيها جيش الترك بعدما وفى لهم بما وعدهم به واستصلح جنوده ثم نهض لملاحقة ابن أخيه إلى مراكش وكان دخوله إلى فاس في ٧ ذي الحجة سنة ٩٨٤ فهو إذن تاريخ ابتداء ملكه.

ولما سمع المتوكل بشخوص عمه إلى مراكش تهيأ لمنازلته ولكنه انهزم أيضاً وتبعه عمه أحمد المنصور خليفة عبد الملك المعتصم ففر عنها إلى سوس ودخلها أحمد نائباً عن أخيه وأخذ البيعة له على أهلها ثم لحق به عبد الملك

وأقام بها أياماً ثم خرج في طلب ابن أخيه واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس، فلم يشعر إلا وقد خالفه المتوكل على مراكش فدخلها باتفاق أهلها، فعاد المعتصم وحاصره بها واستقدم أخـاه أحمد من فـاس فأتـاه بجيش منها وعندئذ فر المتوكل مرة أخرى إلى سوس ومنها إلى بادس ثم إلى سبتة ثم أتى طنجة مستصرخاً بملك البرتغال وكانت طنجة تابعة له.

لم يكن الاحتماء بالأجانب، وأعني غير المسلمين، علامة صحة قط، ومثال ملوك الطوائف ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا، ولم تلاحظ هذه الظاهرة السيئة في المغرب قبل هذا العهد، فالغالب أعطى بادس للأسبان احتماء بهم من الأتراك، وابنه المتوكل هذا أتى بالبرتغال للمغرب، والمأمون بن المنصور سلم العرائش للأسبان مقابل نجدتهم له، وكان الوطاسيون الذين قـاتلهم السعديون في حالة شديدة من الإجهاد والضعف ومع ذلك لم يتطلع منهم أحد إلى مهادنة العدو، فأحرى إلى التسليم له أو الانتصار به على من يناوئهم. لهذا لقي عمل المتوكل استنكاراً عاماً من جميع طبقات الشعب ومالت قلوب الناس عنه وعزموا على مقاومته بكل قوة..

وقد استحس هو هذا النفور والسخط فبعث برسالة إلى أعيان المغرب من العلماء والأشراف والرؤساء يـأخذ عليهم نقض بيعته ويقـول إنـه مـا استصرخ بالنصارى حتى عدم النصرة من المسلمين فـأجابـه العلماء برسـالة شهيرة أبطلت كل حججه وفندت جميع دعاويه، ومن جملة ما قالوا له إن جده الأكبر محمد القائم كان عهد لأولاده أن لا يلي الملك منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر، وأن والده الغالب ألغي ذلك وعهد إليه، والآن عاد الحق لمن

هو له وهو عمه عبد الملك أكبرهم بعد أبيه. وقالوا له إنما تلزمنا نصرتك لو أقمت بيننا ولكنك هربت واستعنت بالنصارى وقد قال النبي ﷺ لرجل من المشركين عرض عليه نصرته: «إني لا أستعين بمشرك» وهكذا كانت الرسالة في المستوى الذي لم يبق له عذراً ولا أعفاه من مسؤوليته.

وكان المتوكل لما حل ببادس التي سلمها والده للأسبان طمع في هؤلاء أن يعينوه على عمه، وملك أسبانيا يومئذ هو فيليب الثاني، فرفض هذا أعانته وضيق عليه في مقامه ببادس فلم يجد بداً من الانتقال إلى طنجة والتفاوض مع البرتغاليين في الدخول معه إلى المغرب لمحاربة عمه. وقد وجد طلبه هذا أذناً صاغية عند ملك البرتغال الشاب ضون سباستيان الذي تحتل قواته مدن سبتة وطنجة والجديدة، طمعاً في اكتساح المغرب ومراغمة دولته التي أخرجته من عدة مواقع كان يحتلها في الجنوب والشمال. ولكن شرط عليه لمساعدته أن تكون السواحل للبرتغال وما وراءها للمتوكل فقبل وبدأ بتسليم أصيلا التي استرجعت من عهد قريب لتكون مرفأ للأسطول البرتغالي ومنطلقاً للجيش المحارب، وانفصل سباستيان من الأشبونة فعرج على قادس، ومنها إلى طنجة ثم أصيلا في عمارة بحرية هائلة، وجيش يبلغ تعداده في أقل تقدير ٨٠٠٠٠ مقاتل منهم ٢٠٠٠٠ أسباني مما أمده به خاله فيليب الثاني ملك أسبانيا بعد أن نصحه بعدم اقتحام هذه المغامرة فلما لم يقبل نصحه لم يسعه إلا معونته، ومنهم ٣٠٠٠ ألماني ومثلهم من الطليان و ٤٠٠٠ من جند البابا صاحب روما ومتطوعون من قدماء المحاربين الأسبان وغيرهم، إلى القوات البرتغالية التي هي العمدة ومعظم الجيش. وعلى حسب ما في التاريخ المجهول المؤلف أن ٢٠٠٠٠ منهم بقوا في الأسطول لم ينزلوا إلى البر، ولعل ذلك كان من الأسباب

التي جعلت عبد الملك يترك سباستيان يتقدم داخل البلاد حتى يحول بينه وبين أسطوله، وكان مع هذا الجيش من العتاد الحربي مئتان من الأنفاض أي المدافع و ١٥٠٠ من الخيل وعدد كبير من الكراريط أي العربات، وذلك بالإضافة إلى نحو ٣٠٠ رجل من أصحاب المتوكل الذي كان يعتقد أن جيش عمه سينضم إليه عند أول مواجهة.

لم تستقر النوى بالملك عبد الملك في عاصمة مراكش حتى أتاه الخبر بتحركات ابن أخيه المخلوع، وكان وقته مقسماً بين توطيد أركان ملكه وإعادة تنظيم الجيش والنظر في مصالح الدولة، وقد استفاد مما رآه في البلاد التي زارها ولا سيما تركيا واقتبس منها كثيراً، وقد لاحظ المؤرخون أنه كان يتزيا بزي الأتراك ويجري مجراهم في غير ما شأن من شؤونه، وأما الجيش فإنه سلك به مسلكهم ورتبه على ترتيبهم، وإن شق ذلك على الناس وقوفاً مع العوائد، حتى تولى أخوه أحمد المنصور فنهج به نهجاً وسطاً.

ومما اعتنى به على وجه خاص جهاز المخابرات، وقد وسع نطاقه وجعله يعمل على نطاق دولي اعتباراً بكونه يتكلم عدة لغات كما قدمنا. وبذلك كان يتتبع خطوات ابن أخيه قدماً بقدم ويحيط علماً بكل ما يبرمه مع البرتغاليين عن طريق مخبريه وجواسيسه من البرتغاليين أنفسهم، وكانت تنقلات الغزاة واستراتيجيتهم الحربية تصله في وقتها وبدقة تامة، ومن ذلك أن تسليم أصيلا إلى العدو كان يعلمه قبل حصوله، وأنه كان يتوقع احتلال العدو للعرائش حسبما جاء في المداولة التي جرت بين المتوكل وسباستيان وأركان جيشه. وكان رأي المتوكل المبادرة بذلك قبل مواجهة الجيش المغربي، لكن سباستيان خام

عنه. يدلنا على ذلك الرسالة التي كتبها المعتصم لأخيه أحمد في تلك الأثناء وقد جاء فيها:

«أما بعد فاعلم أني لا أحب أحداً بعد نفسي كمحبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الأمر بعدي إليك، غير أني أعتاد منك التراخي في الأمور. . . إلى أن يتطرق إلى ما لا يتلافى جبره من الأمور التي تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك ويبلغ العدو معها مراده، من ذلك إهمالك أمر الجند الذي بالعرائش وإغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة إليه من المؤونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك. وجعلت تقابل خطابهم بالإهمال وعدم المبالاة، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك، أبعث إليهم مؤونة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون إليه زائداً على ذلك، مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذراً في هذه المسألة ولا بد ولا بد. فقد بلغنا أن صاحب النصارى (يعني ابن أخيه) بقرب أصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار، ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من الذل والفرار، فانتبه من الغفلة وأفتح عين الانتباه واليقظة فإن الساعة لا تقتضي إلا الحزم، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم والسلام».

فهذه رسالة لا تصدر إلا من رجل دولة في مستوى المسؤولية العظمى التي يتحملها. ودلالتها على حركية رجال مخابراته ونشاطهم مما لا نحتاج أن ننبه عليه.

ولم يبق لعبد الملك شغل إلا الإعداد للمعركة القادمة والتعبئة العامة للجيش الذي سيواجه العدو وتأمين حاجياته من عتاد حربي وتمرين وعلاج ووسائل نقل وغير لك، وكان العنصر المغربي هو أساس الجيش يضاف إليه فرقة من مهاجرة الأندلس وأخرى من مجندي الإفرنج ويبلغ عدده ٤٠٠٠٠ مقاتل فضلاً عن المتطوعين من جميع طبقات الشعب وفيهم العلماء والفقهاء وحملة القرآن واتباع الطرق الصوفية وغيرهم، وكانت خيل المسلمين أكثر من خيل النصارى ولكن مدافعهم أقل.

وقبل توجه عبد الملك إلى مقابلة الغزاة، كتب إلى سباستيان وقد بلغه عيث جيشه في ضواحي أصيلا وشنه الغارات على القبائل المجاورة، رسالة يقول فيها: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدوة فإن ثبتَّ إليّ أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي، وإن أنت رجعت إلى بلادك مكتفياً بقتل بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت كلب ابن كلب» وقد استفزت هذه الرسالة سباستيان واستشار أصحابه فيها فقال له المتوكل الرأي أن نزحف إلى تطوان والعرائش والقصر ونتملكها ونأخذ ما فيها من ذخيرة فنتقوى بها، ووافقه أهل ديوان سباستيان لكن هذا لم يعجبه رأي الخائن وأخذته نخوة الملك فثبت في محله وانطلت عليه حيلة عبد الملك.

وكتب عبد الملك إلى أخيه أحمد أن يخرج بجيش فاس ويتهيأ للقتال ثم كتب إلى سباستيان مرة أخرى بعدما شخص من مراكش ووصل إلى القصر الكبير بما مؤداه أني قطعت إليك ست عشرة مرحلة إما ترحل إلي واحدة؟ فرحل من معسكره بتاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من القصر الكبير حيث يربض جيش المعتصم.

وخدع سباستيان ثانية بكلام عبد الملك فما أن عبر جسر الوادي لمنازلة الجيش المغربي حتى أرسل عبد الملك فرقة من الجيش فهدمت الجسر ولم يكن له مشرع غيره، والتقت الفئتان وزحف عسكر المسلمين على عسكر النصارى واشتد القتال، وبرز عبد الملك ممتطياً صهوة جواده وجال في الميدان يحرض الجند ويقوي نفوسه في حين أنه لما به، إذ كان المرض قد اشتد به وغلبه ومع ذلك فلم يزل يشير بيده إلى المقاتلة أن يتقدموا، وأن يحذروا أفواه المدافع، وقدم أخاه أحمد المنصور لإدارة المعركة ولم يلبث أن توفي وهو على ظهر جواده فأخذه الحاجب رضوان إلى المحفة وهو واضع سبابته على فمه كأنه يوصي بكتم موته، واستمرت المعركة بقيادة أخيه على أشدها والحاجب يتردد على أخيه مظهراً أنه يلقي إليه أوامر الملك حتى هبت ريح النصر وانهزم العدو، وولت فلوله مدبرة على أعقابها والمجاهدون يحكمون السيف في رقابهم ومن لم يمت قتلاً مات غرقاً في الوادي، فإنهم قصدوا الجسر للفرار فوجدوه مهدوماً فصاروا يترامون في أثباجه فلا ينجو منهم أحد، وممن مات غرقاً ومثخناً بجراحه سباستيان ملك البرتغال ومحمد المتوكل، وألوف من جند العدو فيهم كثير من كبرائه، كما أسر منهم عدد كبير وقع فداؤهم بعد ذلك وأخرج سباستيان ودفن في مكان معين إلى وقت الحاجة،وأما المتوكل فإنه سلخ وحشي جلده تبناً جزاء خيانته وطيف به في مراكش وغيرها من المدن وعرف من يومئذ بالمسلوخ.

وكان التقاء الجمعين ضحى يوم اثنين منسلخ جمادى الأولى عام ٩٨٦ هـ، موافق رابع غشت سنة ١٥٧٨. ودامت المعركة إلى ما قبل العصر أي نحو ٥ ساعات، قال ابن القاضي:

«وكان مقدار زمان المقاتلة خمساً وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على

ما حدثني به بعض الميقاتيين» فكأنها مما وهب الله فيها للمسلمين من الظفر بعدوهم في هذه الفترة الوجيزة، حرب ذرية ضربت الرقم القياسي في سرعتها الخاطفة ونتيجتها الهائلة. وأغرب ما وقع فيها هو موت ثلاثة ملوك: بطلها عبد الملك ملك المغرب وسباستيان ملك البرتغال والمسلوخ ملك المغرب باعتبار ما كان، ولذلك تعرف عند الأجانب بمعركة الملوك الثلاثة.

مما لا جدال فيه أن معركة وادي المخازن كانت معركة حاسمة بالنسبة إلى المغرب والبرتغال معاً، وأنها كانت ذات صبغة صليبية، فأما بالنسبة إلى المغرب فإنه أحرز بها كيانه وتفادى خطر احتلال الشواطىء التي كان حررها من قبل، والأطباق عليه نتيجة لذلك من قبل البرتغال بحيث يصبح في عداد المستعمرات الخاضعة لهذه الدولة العنصرية المتعصبة. وأما بالنسبة للبرتغال فإنها كانت ضربة قاضية عليها دولياً وسياسياً، إذ استحال مدها إلى جزر، ولم تلبث أن سقطت تحت سيطرة جارتها أسبانيا إلى حين، وكونها كانت ذات صبغة صليبية ظاهر من تحالف الدول النصرانية مع سباستيان اعتباراً من بابا روما فإسبانيا فإيطاليا فألمانيا فضلاً عن المتطوعين المسيحيين من شعوب أوروبية أخرى. ولا غرابة في ذلك والعصر عصر تعصب وانتقام من المسلمين وحكمهم الذي يبسط جناحيه على معظم المعمور، فإن الروح الصليبية لم تنفك عن حروب الأوروبيين والأمريكيين حتى في العصر الحديث الذي يصفونه كذباً وبهتاناً بأنه عصر المدنية والعرفان، فبالأمس القريب تحالفت دول أوروبية كثيرة والولايات المتحدة على ضرب ثورة الريف التحررية ومساندة أسبانيا في قتالها لمحمد بن عبد الكريم الخطابي. وقال بيدو وزير خارجية فرنسا بعد ذلك في تصريح له عن حركة القمع التي كانت قوات الاستعمار تسلطها على المقاومة

الوطنية في المغرب: «إنني لن أدع الهلال ينتصر على الصليب». ! وهكذا كانت كل الحروب التي شنتها الدول المسيحية أو التي كانت مسيحية على الشعوب الإسلامية طابعها الصليبية والانتقام من العرب والمسلمين.

إنما نحن لا نبالغ في تقدير نتيجة المعركة من هذه الناحية لو كتب لها النجاح إلى حد القول بأن مصير المغرب كان هو التنصير وأنه سيصبح أندلساً ثانية، فإن المغاربة لم يكونوا في دينهم على شفا، ولم يكونوا من القلة بحيث يجوز إرغامهم على اعتناق المسيحية كما وقع في مملكة غرناطة عند الاكتساح، فإن المسلمين هناك لم يكونوا يتجاوزون عدد المليون الواحد، ومع ذلك فقد هاجر أكثرهم إلى ديار الإسلام ومن بقي منهم لم يتم تنصيره إلا بعد أكثر من قرن من الزمن هذا إذا لم يقع رد فعل ضد الاستيلاء البرتغالي حتى لو سقطت الدولة المغربية، فقد قاتل المغاربة تحت راية عدد من المجاهدين الأبرار، الغزاة الأسبان والبرتغاليين من غير أن تكون هناك دولة تحميهم وتشد ظهرهم وذلك عند انهيار دولة بني مرين وأثناء ضعف دولة بني وطاس.

وينتهي بنا الكلام على معركة وادي المخازن، ولا ينتهي عن بطلها العظيم السلطان الغازي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله الذي يقول عنه المؤرخ الأسباني منويل على ما نقله المؤرخ الناصري من كلامه: «كان أمر هذا الرجل عجباً في الحزم والشجاعة حتى أنه لما أحس بأنه لا محالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت مجاهداً شهيداً».

والحقيقة أن عبد الملك عاش حياته كلها مجاهداً، وأنه استفاد من والده ما لم يستفده أحد من إخوته، فأحرى أحفاد هذا الوالد الذي حقق أمل

الشعب فيه بطرد البرتغاليين من مدن وشواطىء كثيرة كانوا يحتلونها، ولو امتدت به الحياة لما ترك بيدهم أي موقع، وعلى هذا عاهد المغاربة الأشراف السعديين لما ألقوا إليهم بالزمام، ومع الأسف الشديد أن هذا العهد لم يقع الوفاء به بعد محمد الشيخ المهدي إلا من مترجمنا حتى بعد هذه المعركة الساحقة التي كان الواجب يقضي باستغلالها إلى أبعد حد، وذلك بتطويق بقية المدن الساحلية المحتلة من طرف البرتغال وهي طنجة وسبتة والجديدة وحصارها حتى تسقط باليد المغربية، والفرصة فيها سانحة والظروف مواتية، ففي مثل هذه الحال يقال: وامعتصماه!...

مات عبد الملك في ساحة القتال شهيداً مبروراً، لم يعلق من الدنيا بشيء فكان مثالاً للملك المكافح من أجل عزة بلاده وشرفها وحماية ملته ودينه، وقد شهد له بذلك العدو والصديق، والمحب والمبغض فسلام عليه في ملوك الإسلام الخالدين، ورحمه الله وجازاه جزاء المحسنين. وكان عمره يوم وفاته نحو الخمسين سنة باعتبار أنه أكبر بعد عبد الله الغالب، وهكذا كانت ولادته كما في الرخامة التي على قبره سنة ٩٣٣ هـ فإذا قدرنا أن ولادة عبد الملك كانت بعد عبد الله بثلاث سنوات كان عمره كما قلنا تقريباً.


محمد الخامس

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



46



بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت



جلالة الملك محمد الخامس في أول عهده



نشأته وتكوينه ـ الظروف والملابسات التي صاحبت مبايعته ـ ثورته على التقاليد والمراسيم البالية ـ التلاحم بينه وبين الشعب والحركة الوطنية ـ عيد العرش ـ مغزاه ـ رحلته التاريخية إلى طنجة ـ تحديه للإدارة الفرنسية ـ التوتّر بينه وبين الإقامة العامة ـ المؤامرات الاستعمارية عليه ـ نفيه ـ ثورة الشعب ـ تنظيم المقاومة ـ عودته من المنفى ـ إعلان الاستقلال ـ صفاته وأخلاقه ـ وفاته.

تعترض الأمم والشعوب في طريقها إلى التقدم والغد الأفضل عقبات وأخطار ترجع بها إلى الوراء، وربما تحكمت في مصيرها بما لا تحمد عقباه. ولكن العناية الإلهية تفيض لها من أبنائها منقذاً يمد لها يده، حين تكون قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، ومن عجائب الأقدار أن يقترن وجود هذا المنقذ بالظرف الذي تحدث فيه الواقعة أو تسبقه بقليل، ليَنفُذ القضاء ثم يأتي اللطف الذي يصحبه.

وهذا ما وقع للمغرب الذي حافظ على استقلاله وحمى كيانه الدولي مدة ثلاثة عشر قرناً، برغم ما تعرض له من هجمات صليبية عنيفة، وخاصه من حروب طويلة مع دول أجنبية كانت تطمع في قهره والاستيلاء عليه، إلى أن أمِرَ أمْرُ الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، واتفقت كلمتهُ على احتلال البلاد الإسلامية، فسقطت الجزائر ثم

تونس في يد فرنسا وليبيا في يد إيطاليا فضلاً عن تسلط انكلترا على مصر، وتهديد الخلافة العثمانية ذاتها، وما بقي تحت حكمها من البلاد العربية، بالاكتساح، وهو ما وقع بعد الحرب العالمية الأولى.

هنالك لم يبق للمغرب خيار، وقد تكالبت عليه الدول الاستعمارية والدول السابحة في فلكها، فارتكب أخف الضررين وقَبل ما أسفر عنه مؤتمر الجزيرة الخضراء من الاستعانة بالخبرة الدولية في تنظيم شؤونه وتجديد دفاعه، مع الاعتراف بوحدة ترابه وسيادة سلطانه واستقلاله، ولكن الأمر آل إلى حماية فرنسية وإسبانية ودولية تقتسم جنوب المغرب وشماله ومدينة طنجة على ما هو معروف.

ومن الألطاف الخفية وصنع الله للمغرب أنه في الوقت الذي كانت قوى الشر والطغيان تأتمر به وتتآمر عليه، وقبل فرض الحماية الأجنبية والإعلان عنها سنة ١٩١٢ م بسنة أي عام ١٣٢٩ هـ الموافق سنة ١٩١١ م كان قد استهل بالقصر الملكي بفاس المولود السعيد الذي سيُطيح بنظام الحماية بعد انتصابه وترسيخ جذوره، ويعيد إلى البلاد حريتها واستقلالها فيحق في دهَاقنة الاستعمار ما قيل: يُدبِّر ابن آدم والقدر يضحك.

بل إن ما هو أغرب من ذلك أن يجهد المسؤولون في إدارة الحماية جُهدَهم ليؤخروا من كان مقدماً ويقدموا من كان مؤخراً، إمعاناً في التدبير لبقاء نفوذهم، فيكون تدميرهم في تدبيرهم، وتتكرر قصة آل فرعون في تبنيهم لموسى عليه السّلام ليكون عدواً لهم وحزناً.

وغير خفي أن محمداً الخامس هو الابن الأصغر للسلطان يوسف بن

الحسن الأول، وأن ولي العهد كان هو الابن الأكبر الأمير إدريس، إلا أن وفاة السلطان شبَه المفاجئة، سنة ١٩٢٧ جعلت ضباط الاستعلامات والرؤساء العسكريين يتمالؤون على تجاهل ولي العهد ويولون محمد الخامس لصغر سنه، اعتقاداً منهم أنه سيكون لعبة في أيديهم يفعلون به ما يشاءون.. ولما اجتمع الملأ من الناس لمبايعة السلطان الجديد بالقصر الملكي بفاس، نادى المنادي: الله يرحم مولاي يوسف، الله ينصر سيدي محمد، فلم يملك قاضي الجماعة بفاس أن قال: وأين مولاي إدريس؟ فصاح به الصدر الأعظم: ليس هذا سوقك أيها الفقيه[1]، وكانت هذه الهفوة سبباً في فقد القاضي لمنصبه. وأبعد كذلك الحاجب السلطاني الذي كان الاستعمار يتضايق منه، كما كان الصدر الأعظم يشعر بالضعف أمامه.

ولكن هذه المناورات كانت ضداً على القائمين بها، وكان محمد الخامس غير ما ظنوا، إنه كان هو ذلك المنقذ الذي قيضه الله لهذا الشعب فسعدت به البلاد والعباد على خلاف ما أراد العدو.

وجلس محمد الخامس على العرش والبلاد ترزح تحت عبء ثقيل من وطأة الاستعمار، وكان جلالته لا يزال في إقبال الشباب، وقد شعر بما ألقى عليه من مسؤولية عظمى، وما يلزمه من كفاح طويل لإنقاذ شرف أمته، فكان يبدو كئيباً حزيناً من كثرة التفكير في المستقبل والاهتمام بمصير شعبه. كما تعكس ذلك صُوره في هذا العهد.

واجتهد في إتمام ثقافته وتكوين نفسه بما يلزم أن يكون عليه ملكه لأمة

(١) هذا ما يُعبِّر عنه المثل العربي القائل: (ليس العُش بعشّك فادرجي).

عظيمة ينتظرها مستقبل عظيم. وكانت عادة الملوك قبله أن لا يتّصلوا بالناس إلا لِماماً، وإذا اتصلوا بهم في إحدى المناسبات الرسمية لا يتكلمون، ولا يكون ذلك الاتصال إلا في غياهب القصور، وبحضور العدد العديد من الرؤساء والأعوان، وزاد الاستعمار في تكثيف هذا الحجاب «وتنظيمه» وفرض نفسه وإقْحامها في جميع الاتصالات التي تقع بين جلالته والزوار الأجانب ولو كانوا من أعاظم الرجال، بحيث لم يرغم على التخلي عن هذه الوقاحة إلا في الاتصال الذي وقع بين جلالته والرئيس روزفلت في الدار البيضاء أثناء الحرب العالمية الثانية.

وكان جلالته يعمل على تحطيم هذه القيود شيئاً فشيئاً، فيتصل بالناس في مناسبة الأعياد وتقديم التهاني إليه من وفود الأقاليم وغيرهم، فيخاطبهم بالسؤال عن أحوالهم وسيرة الولاة فيهم، ويستقبل رجال الوطنية في قصره، في أوقات مختلفة من ليل ونهار، ويجاذبهم أطراف الحديث في الأحوال العامة وسياسة البلاد. وصار يتخفف من تقاليد الاستقبالات الرسمية ويخاطب زائريه، كُلًّا بما يناسب حاله، وما أتى من أجله.

وتطور الخطاب إلى خطب، وإلى تصريحات، ثم صارت الخطب خططاً للعمل وبرامج لبناء مستقبل الأمة. وفُتح الباب على مصراعيه واندمج الملك في شعبه، وتعلق الشعب بملكه، فلم يبق هناك مجال للتدخل ولا للرقابة.

وأكثر ما كان يتمثل ذلك في عيد العرش الذي يخلد يوم جلوس العاهل الكريم في ١٨ نونبر ١٩٢٧ على عرش المغرب.

والذي أُنشيء في الحقيقة للإعلان عن الذاتية المغربية والكيان السياسي

للبلاد والتعبير عن الولاء للجالس على العرش رمز السيادة القومية والوحدة الترابية للوطن، ولذلك أنكره المستعمرون وقاوموه، واستخفوا بفكرة إنشائه وما ترمي إليه من معان سامية كانوا يدّعون أنها قَصْر عليهم لا تتجاوزهم إلى غيرهم، ولكن الشعب الذي كان مومناً بنفسه اندفع في تأييدها وتحمَّس لها بما فوق الظن، وكان اليوم المخصص للاحتفال واحداً فصار أياماً، وكان مقتصراً على العاصمة والمدن الكبرى فعم جميع المدن والقرى، وكانت الاستعدادات له تبدأ بأسبوع وأكثر، قبل حلوله، فتُقام معالم الزينة والأفراح والحفلات في الساحات العمومية والإدارات والجمعيات والمدارس وغيرها، بمشاركة جميع طبقات السكان، وتُلقَى الخُطب في التنويه بالعرش، والمطالبة بحقوق الشعب، وترسل البرقيات إلى الديوان الملكي بالتهنئة والتأييد لجهود الملك الرامية إلى تقدم الوطن وتحرره، ويُلقي جلالته خطاب العرش الذي يتلقاه الشعب بحماس كبير، ويُصفق له من الأعماق، لما يتضمنه من استعراض لمراحل العمل الوطني التي وقع تجاوزها، وما يستقبل من مراحل أخرى تتطلب من الجميع أن يتجند لتحقيقها، مع الإهابة بإدارة الحماية لإنجاز قواعدها وتحقيق مطامح الشعب الذي كبر عن أن يتلهى بما يتلهى به الأطفال، والتأكيد على أن المغرب سائر في طريقه إلى الأمام لا يثنيه عن بلوغ آماله شيء، معتمداً بعد الله عز وجل على همم أبنائه وتضحياتهم، في كلام من هذا المعنى يذكي العزائم ويقوي النفوس، فيكون بمثابة عهد جديد بين الراعي والرعية على مواصلة السعي طول السنة لما فيه خير البلاد والرفع من شأنها في جميع الميادين.

ويلقي جلالته هذا الخطاب بالقصر العامر في حفل يدعى إليه وجوه

القوم والشخصيات الوطنية البارزة، والعمال والتجار والحرفيون من جميع أنحاء المغرب، إضافة إلى رجال الحكومة والسلك الديبلوماسي والمقيم العام ومساعديه من المدنيين والعسكريين وغيرهم، فيكون مظاهرة وطنية كبرى على الصعيد الرسمي تقر بها عيون، وتقذى أخرى.

وكانت رحلاته إلى الأقاليم وسيلة أخرى إلى الاتصال بجماهير الشعب، وتمتين روابط بالقادة الوطنيين والعاملين في كل حقل من حقول التوعية والنهضة والإصلاح، إذ كانت تنظم فيها استقبالات حارة له، وترتفع الأصوات بالهتاف بحياته وحياة المغرب، وترتب لقاءات بينه وبين ممثلي مختلف الطبقات يستمع فيها إلى مطالبهم ويعرضون عليه مشاريعهم ذات المصلحة العامة، فيشجعهم عليها ويحصلون على تأييده ومعونته المادية والمعنوية، وكم ترفع عنهم من مظالم، ويكسبون من مناعة حين يتحدث إليهم بمحضر رجال السلطة ويعطي موافقته على ما يقدم إليه من برامج للعمل، ويوصي بالتعاون على تنفيذها وإزالة جميع العوائق التي تعترض طريقها إلى الإنجاز.

وكانت أعظم هذه الرحلات هي رحلته التاريخية إلى طنجة سنة ١٩٤٧، وربما يقال: وماذا في زيارة ملك لمدينة من مدن مملكته، ومن أمر يستحق أن يسجل في أحداث التاريخ ولكن القائل إذا علم أن المغرب يومها كان يخضع لحكم استعماري بغيض بنى سياسته على مبدأ فرق تسد، فقسم البلاد إلى ثلاث مناطق، وأقام الحدود والحدود التي لا يجوز المرور منها للمواطنين إلا بجواز سفر يختلف بعضه عن بعض وحتى الملك نفسه من عهد السلطان مولاي يوسف إلى عهده هو، لما كان يمر بطنجة في طريق سفره بحراً إلى الخارج، فإنه لم يكن يسوغ له أن ينزل إليها بحجة أنها منطقة دولية وإنما

كان رعاياه من المغاربة المخلصين ومندوب جلالته فيها يصعدون إلى الباخرة للسلام عليه ويلوحون له بأيديهم ومناديلهم لتحيته من الشاطىء. إذا علم القائل هذا، عرف أهمية زيارة جلالته لطنجة ودخوله إليها دخولاً رسمياً واتصال رعيته فيها به وبوليّ عهده الأمير مولاي الحسن وحكومته وباقي رجالات المغرب الذين حضروا معه، وذوي الحيثيات المختلفة، وكان جلهم ممنوعاً من دخول طنجة والحصول على جواز السفر الخاص بها.

لذلك فإن هذه الرحلة تعتبر ثورة على ذلك الوضع الجائر، وتحطيماً للحدود المصطنعة بين مناطق المغرب الثلاث وتجاوزاً للقوانين الاستعمارية التي كانت تحول بين العاهل المفدي والاتصال المباشر بشعبه في المنطقتين المفصولتين عن المغرب الكبير، منطقة طنجة والمنطقة الخليفية كما كانت تسمى آنذاك، وهي المشمولة بالحماية الإسبانية.

يضاف إلى هذا خطاب طنجة التاريخي الذي ألقاه جلالته في حدائق المندوبية السلطانية بحضور رجال الحكومة المغربية وسفراء الدول الأجنبية وسلطات الحماية والجماهير الغفيرة من المواطنين القادمين من جميع أنحاء المغرب، فضلاً عن سكان طنجة، وهو الخطاب الذي عبر فيه عن تمسكه بحق بلاده في استرجاع حريتها والانطلاق من أسر التبعية الأجنبية بهذه الكلمات القوية:

«إذا كان ضياع الحق في سكوت أهله عنه، فما ضاع حق من ورائه طالب، وإن حق الأمة المغربية لا يضيع، فنحن بعون الله على حفظ كيان البلاد ساهرون، ولضمان مستقبلها الزاهر عاملون» ثم حيا الجامعة العربية

التي ظهرت في ذلك الحين كطوق نجاة للعرب، بما يلمح إلى ارتباط المغرب بها حالاً ومالاً.

وهكذا لم تقتصر زيارة طنجة على تخطي الحدود الممنوعة والالتقاء بالشعب المحجوز فيها، بل طالبت برد الأمانة إلى أهلها وإعطاء الحق لأربابه الساهرين عليه، المتفانين في الدفاع عنه، وليس هو إلا الوحدة والتحرير من جميع القيود.

إن رحلة طنجة لم تتم إلا بعد مفاوضات سياسية واتصالات ديبلوماسية، وإزاحة كثير من الأشواك التي وُضِعت في طريقها والقضاء على عدد من المناورات التي دبرت لإحباطها، لذلك فإنها كانت مرحلة من مراحل الكفاح الوطني في سبيل الوحدة والحرية والعزة والكرامة، وستظل سطراً ذهبياً في تاريخ المغرب المكافح بقيادة عاهله العظيم.

وقد كان لها رد فعل قوي في الأوساط السياسية والعسكرية بفرنسا ومن أعظم ما أخذ على الخطاب الملكي هذه التحية المتعاطفة مع الجامعة العربية، في حين أن السياسة الاستعمارية آنذاك كانت تطبخ برنامج الإدماج المعبر عنه بفرنسا ما وراء البحار، فكيف يُولِّي الملك وجهه إلى الجامعة العربية ويحييها ويستدبر فرنسا ولا يخصها بكلمة اعتراف واحدة؟ واستُدعي المقيم العام المدني، من أجل ذاك إلى باريس، وعُوض بمقيم عام عسكري، وبدا التوتر على أشده بين القصر والإقامة وإن لم يكن خفياً من قبل.

وعاد محمد الخامس من طنجة إلى الرباط كأشد ما يكون عزماً وتصميماً على تحدي الخطط الاستعمارية، وكانت الأعمال عنده تصاحب الأقوال،

فواصل معاركه مع الجهل والشعوذة والإدارة الاستعمارية التي تقنن هذين الداءين الخطيرين المتمكنين من المجتمع المغربي، فلم يفتأ يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه بإنشاء المدارس من ماله الخاص وبعث البعوث العلمية إلى الخارج، ويسهم هو في كل حركة من هذا القبيل بالبذل والعطاء وبالحضور في حفلات تدشين المدارس والخطابة فيها، ويضرب المثل بتربية أبنائه وبناته ليجعل منهم قدوة للشعب، وكذلك كان، فصار الأمير مولاي الحسن مثلاً يحتذى به في حسن التربية وسعة الثقافة، وصارت الأميرة عائشة زعيمة النهضة النسوية في البلاد.

وبالنسبة إلى الشعوذة والمشعوذين الذين كان الاستعمار يتخذهم مطايا لبلوغ أغراضه ولتنويم الشعب، فإنه لم يكن يتعامل مع أي منهم برز في الميدان، ويتعمد تجاهله في المواطن التي يكون المعنى بالأمر يتشوف إلى التظاهر فيها، وأمر بإبطال ما كانت بعض الطوائف الجاهلة تقوم به في مواسمها من البدع المخالفة لتعاليم الإسلام، وتستغله الإدارة الاستعمارية لتشويه سمعة المغرب، وتجعل من تلك المواسم ملتقيات سياحية للأجانب الذين يتهافتون على أخذ مناظر التخلف المتجذر في المغرب. وكان أحد المستهترين الذي بدأ حياته مغنياً يعمل في أجواق الطرب، قد اتخذ صيغة شيخ طريقة وأنشأ زاوية يجتمع عليه فيها الشذاذ والبطالون، وذلك بمساعدة إدارة الاستعلامات طبعاً، فرفع أمره إلى جلالته، فأمر بمحاكمته أمام لجنة من أهل العلم وتبين تلاعبه واستخفافه بأمر الدين فصدرت الأوامر بمعاقبته وإغلاقه الزاوية المشبوهة، وكان ذلك بمثابة إنذار للمشعوذين المسخرين لخدمة الاستعمار.

وكانت المعركة السياسية أعظم من كل معركة أخرى، نازل الملك فيها الاستعمار وأعوانه، وتحدى إدارة الحماية بما أحبط مشاريعها وجسد خططها التي كانت تريد تفكيك وحدة المغرب والقضاء على عروبته، وعلى دينه إن أمكن، ليسهل عليها ابتلاعه واستتباعه إلى الأبد وجعله ولاية من ولايات الجمهورية الفرنسية، كما كانت تعتبر الجزائر الشقيقة.

وفي هذا المجال نذكر الظهير البربري الذي أصدرته في غفلة من الحكومة المغربية سنة ١٩٣٠ وقامت قيامة الشعب المغربي والعالم الإسلامي ضده، فاضطرت إلى التراجع عنه ظاهراً، وإن لم تتخل عنه وعن تنفيذ ما أمكن من بنوده في الخفاء، ولا سيما إبعاد العنصر البربري من السكان عن التحاكم إلى الشرع الإسلامي بإنشاء المحاكم العرفية المبنية على العوائد والتقاليد الجاهلية ونصبه مراقبين عليها من موظفي إدارة الاستعلامات وإلزام القبائل البربرية برفع قضاياهم إليها، وكذلك بإنشاء تعليم فرنسي بربري وحظر التعليم العربي على المواطنين الذين تعتبرهم من أصل بربري.

وإلى جانب مقاومة هذه المؤامرة فساد كل تدبير يمت إليها بصلة، صار جلالته كلما قدم إليه مشروع منشور - وهو ما يسمى في المغرب بالظهير - لا يتوافق ومصلحة البلاد، امتنع من التوقيع عليه، وألقاه جانباً بحيث لا يجري به عمل، حتى اجتمعت لديه عشرات الظهائر التي تنتظر الإمضاء، وهو يصر على إهمالها، الأمر الذي نشأت عنه الأزمة المستحكمة التي لم يجد لها المقيم العام الفرنسي الجنرال جوان حلاً إلا تحريض كبار القواد ورجال الإقطاع مثل الباشا الكلاوي والضالعين معه، على إبداء العصيان وتدبير خلع جلالته، زعماً بأنه ضد تطور المغرب وأنه متطرف في أفكاره الدينية.

ولا حاجة بنا إلى استعراض الحرب الباردة التي نشبت بين القصر الملكي والإقامة العامة الفرنسية على عهد الجنرال جوان وخلفه الجنرال كيوم، بهذا السبب. حتى أدت إلى الغلطة الفادحة التي ارتكبها ممثل فرنسا بموافقة حكومتها، وهي نفي جلالته وجميع أفراد أسرته يوم ٢٠ غشت ١٩٥٣ إلى كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر، وتنصيب خلف له على العرش شيخ هم في الثمانين من عمره لا مؤهل له إلا كونه من الأسرة المالكة، بمساعدة ثلة من القضاة والعلماء والولاة الخونة.

ولتأطير الصورة التي رسمناها لجلالته وهو في غمرة النضال مع سلطات الاستعمار، ننقل بعض الفقرات من محادثة كنا أجريناها معه في أواخر الأربعينات، ونشرت في مجلة رسالة المغرب بالعدد ١٣٤ ـ فنرى كيف كان يتصدى لمثل هذه الأزمات، بروحه العالية، وإيمانه الراسخ، ولا يبالي ما يلاقيه في ذاك من المشاق العظام.

وكانت كتابة هذه المحادثة بأسلوب الغائب، فلذلك ابتدأت بعد المقدمة بهذه الصيغة:

أ ـ «فروى المتحدث إلى جلالته أنه في حفلة تدشين مدرسة بمكناس شرف جلالته الحفلة وألقى فيها خطاباً قيماً من خطاباته التوجيهية المشهورة، ورجع إلى القصر في مظاهرة شعبية عظيمة، عبر بها الجمهور عن شكره وامتنانه لعاهله العظيم وحصل بالطبع لجلالته تعب من كثرة رده للتحية والازدحام الواقع عليه من مختلف طبقات الشعب التي تريد إطفاء غلة الشوق إليه فقال أحد كبار الوزراء لجلالته: ما لك تتعب نفسك من أجل هؤلاء القوم وهم لو تعلموا وتحرروا لكنت أولى ضحاياهم، ولاستبدلوا

الجمهورية بالملكية وثاروا في وجهك ووجه الأسرة المالكة، إن أجدادك ما حكموهم إلا بالجهل والبطش.

فما كان من جلالته إلا أن انفجر وقال: أنا لا يهمني شخصي إنما يهمني أن يتعلم الشعب ويتحرر، ولأن أكون فرداً في أمة لها حقوق، خير من أن أكون ملكاً لأمة ليس لها حقوق».

وقال المتحدث لجلالته: حاشا لله يا مولاي أن يكون أسلافك حكموا المغرب بالجهل والظلم، فهم قدس الله أرواحهم ما قصروا في نشر العلم في الحواضر والبوادي، وما آلوا جهداً في تعميم العدالة بين الرعية، وحاشا أن يكون جزاء الشعب لملكه المفدى، هو الذي ذكر هذا الناصح.

فإن المغرب لو كان جمهورياً من قبل لاختار رئيساً يكون على صفة جلالتكم في الإخلاص والعمل لمصلحة شعبه، فكيف وهو ملكي دماً ولحماً وفكرة وعقيدة.

إن هذه الكلمة الخالدة التي قل أن يكون لها نظير فيما فاه به الملوك ورجال السياسة في القديم والحديث، لتدلنا على إيمان محمد الخامس بنفسه وثقته بالله وتضحيته العظيمة في سبيل شعبه الذي لا ينسى له أبداً مثل هذا الموقف العظيم.

وينظر جلالته لمستقبل شعبه بالعين التي ينظر بها لحاضره، فبينما هو يعمل لاستنقاذه من الوضع المتردي الذي هو فيه، إذا به يبني أسس ذلك المستقبل الزاهر الذي ينتظره ويعدله عدته، ومن ذلك اعتناؤه بتربية الأمراء أبنائه، ليكونوا قدوة لشعبه وأعواناً له على الخير في حياته المقبلة.

ب ـ «فيروى المتحدث إلى جلالته أنه قال: وهو يتكلم عن ولي العهد مولاي الحسن ودراسته وتوجيهه العلمي، وكان لم يكمل دراسته الثانوية بعد: أن بغيتي أن يدرس مولاي الحسن الحقوق في النهاية، وذلك لئلا يمر بالتجربة الصعبة التي أمر بها كل يوم، حين يقدم إليَّ ظهير جديد للتوقيع، فادرسه بحسب وسعي وأحيله على لجنة خاصة تدرسه أيضاً للتحقق من صلاحيته وعدم احتوائه على شيء يمس مصلحة الرعية، ولا يقدر أحد أن يتصور ما أحس به من الألم حينما يصدر أحد الظهائر، ويتبين أن فيه مساساً بحق من حقوق الفرد أو الجماعة لم نتنبه له. فلذلك يجب أن تكون لولي العهد ثقافة قانونية، يتفادى بها المشاكل من هذا القبيل».

وهنا قال المتحدث لجلالته: «إننا نؤمل أن ينتهي هذا الوضع الشاذ في عهد جلالتكم، فلا يأتي دور مولاي الحسن، بعد عمر طويل لجلالتكم، إلا وقد استقل المغرب، ووُكِل أمر التشريع فيه إلى ضمائر حية وذمم عامرة، يُؤْتَى معها كل تزوير وتدليس، فقال جلالته: حقاً ولكنا لا بد أن نعمل على أسوأ الاحتمالات».

هذا الشعور العميق بالمسؤولية الذي تنطوي عليه هذه النفس الكبيرة، هو في نظرنا أعظم تحر للعدالة من محمد الخامس، لأنه لا يكتفي بالتحري للتشريعات الحالية بل يتخذ الضمانة لعدالة ما قد يوضع من تشريعات في المستقبل البعيد.

ج ـ «وبعد إلقاء خطابه الشهير في زيارته لطنجة الملمع إليها آنفاً، دخل جلالته للقاعة الكبرى بالمندوبية السلطانية ليستقبل المهنئين، فكنت ممن

تشرف بمقابلته وهنأته على التوفيق العظيم والتأثير العميق الذي كان لهذا الخطاب في نفوس المستمعين، وقلت له إن أستاذاً مصرياً كان معي وقد استمع لخطاب جلالته، وصرح لي من فرط الإعجاب أنه لا يوجد ملك من ملوك المسلمين اليوم يستطيع أن يلقي مثل هذا الخطاب بمثل هذه الروح وهذا الإيمان وهذه الحماسة، فهنيئاً لكم بهذا الملك وهنيئاً له بكم. فقلت له: ألا تقول هنيئاً به للمغرب والمسلمين أجمعين؟ فقال: هو كذلك.

فقال جلالته: ألم تقل له وهذا مع كونه مقيداً؟ فقلت له: إنه يعرف كل شيء يا صاحب الجلالة».

وهذه الكلمة المؤثرة تصدر من هذا الملك العظيم، بإثر ذلك الموقف العظيم، هي أحسن تعبير عن روحه الشعبيَّة التي لا تفارقه في وقت من الأوقات، فإنه لم يداخله عجب ولم يزده خيلاء ولا ذهب مع عظمة الملك وغرور السلطان، وإنما فكر في أنه مقيد يحال بينه وبين ما يريد، وما يريده هو حرية شعبه وتقدمه وازدهاره، وذلك هو ما ألب عليه سلطات الاستعمار وأدى بها إلى ارتكاب تلك الحماقة التي كانت نهاية وجودها في المغرب.

ولقد أُعلن عندها النفير العام في البلاد، فشمَّر كلُّ فرد من أبناء الوطن عن ساعده وقام على قدم وساق لخوض معركة التحرير مع المستعمر الغاشم، ولم تمر إلا أيام معدودة حتى ظهر أول فدائي صنديد هو الشهيد علال بن عبد الله الذي داهم الدمية التي نصبها الفرنسيون بصفة ملك على العرش، وهو متوجه في موكب محروس إلى صلاة الجمعة، بسيارة متداعية اخترقت صفوف الموكب، وأطاحت بالسلطان المزعوم من فوق الفرس الذي كان

يمتطيه، فجرح وحمل في أسوأ حالة، وتفرق الموكب مذعوراً لا يلوي على شيء، وسقط الفدائي برصاص أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا يصحبون الموكب شهيداً مبروراً ومناضلاً خالداً.

وتكررت الحادثة مرة أخرى في مراكش بتفجير بعض المفرقعات أثناء صلاة الجمعة وأصيب فيها الباشا الكلاوي زعيم المؤامرة والسلطان المصنوع السيء الطالع، الذي لم يعد يجرؤ على الظهور بعدها إلى أن مضى لحال سبيله.

وكانت المقاومة تشن الغارات تلو الغارات في وضح النهار وفي مدينة الدار البيضاء بالخصوص على أساطين الاستعمار من مدنيين وعسكريين ومعمرين من رجال المال والأعمال الفرنسيين، وعلى أذنابهم من الخونة في كل جهة ومكان، وصارت الجنة التي كانوا يمنون بها أنفسهم بعد فراغ العرش من محمد الخامس والساحة الوطنية من القادة والزعماء المخلصين، جحيماً يتأجج بنار المفرقعات وطلقات المسدسات صباح مساء، وغُير المقيم العام أكثر من مرة، وكثر الزحام على أبواب شركات السفر الجوية والبحرية الذاهبة إلى فرنسا من العائلات الفرنسية والخونة الذين كاد الخوف يقتلهم بغير سلاح، حتى لقد عد من المحظوظين من يجد وسيلة للسفر ووعداً بالحجز ولو بعد شهرين وأكثر.

وحينئذ لم يجد الخصم المغرور بقوته ملجأ إلا محمد الخامس ينقذ الموقف ويقر الأمن ويعيد الأمور إلى نصابها فلجأ إليه راغماً وفتح باب المفاوضة على أساس إرضاء المطالب الوطنية للشعب المغربي المكافح.

وعاد جلالة الملك إلى وطنه يوم ١٦ نونبر ١٩٥٥ عزيزاً مكرماً، واضعاً رجله على رقبة كل استعماري حقود، محققاً لشعبه أمله في الحرية والاستقلال،

فاستقبله هذا الشعب الوفي بما يستقبل به الأبطال الفاتحون بفرحة عارمة، بخروج الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع يهتفون ويرقصون، وينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية، بإقامة معالم الزينة في كل مكان، بما يعجز القلم عن وصفه، ولا يتصوره إلا من شاهده وكان أن حل عيد ذكرى جلوسه على العرش بعد يومين من رجوعه فألقى جلالته خطاب العرش الذي بشر فيه الأمة بانقضاء عهد الحجر والحماية واستقبال عهد الحرية والاستقلال، فتضاعف سرور الأمة ابتهاجاً واستمرت الاحتفالات على جميع الأصعدة ومن كل طبقة من طبقات الشعب أياماً عديدة، وتقاطرت الوفود بالآلاف من المواطنين القادمة إلى الرباط للتهنئة والاعتراف بالجميل.

وكان محمد الخامس على اشتغاله بمقابلة الوفود من الداخل والخارج، وترتيب إقامته، وتفقد أحوال قصره التي عبثت بها الأيدي، هو محمد الخامس الذي لا يعرف معنى للراحة ولا للتشاغل عن النظر في المصالح العليا للبلاد، فسرعان ما عاد إلى نشاطه اليومي وتدبير شؤون المملكة بما تتطلبه المتغيرات الجديدة، وفي طليعتها تأليف الحكومة الوطنية الأولى، ورسم خطة العمل لها، ووضع أسس توحيد البلاد. واقتضاه الأمر السفر إلى الخارج مرتين، مرة إلى فرنسا ومرة إلى إسبانيا، وذلك من أجل التفاوض على تحقيق الاستقلال والوحدة الكاملة للتراب المغربي وبعد العودة واستكمال الاتفاقيات الضامنة للاستقلال ألف أول جيش وطني للدفاع عن كيان البلاد، وأنشأ ديبلوماسية حديثة تعمل على تنظيم علاقات المغرب بالخارج، وأسس مجلساً وطنياً استشارياً يمهد به إلى النظام الديموقراطي والحكومة النيابية المسؤولة أمام البرلمان الشعبي المنتخب.

وكذلك سار شعبه سيراً حثيثاً في طريق التطور والنهوض الذي كان ينشده مع الحماية، فحقق في سنة واحدة ما لم تحققه الحماية في أربعين سنة وزيادة، ولسنا نكتب ترجمة لمحمد الخامس، فنتتبع جميع أعماله ومنجزاته التي لا تستوعبها الدفاتر المعدودة الأوراق، وإنما نكتب كلمات وجملاً للذكرى والتأمل في حياة هذا العبقري الذي شأى السابقين وأتعب اللاحقين.

ولعل هذه الصورة الجدية الطافحة بمعاني العزم والحزم التي قدمناه بها، تحتاج إلى إسباغ بعض الظلال عليها من دماثة خلقه وسماحة نفسه ولين جانبه لتكون صورةً طبق الأصل من شخصيته الكبيرة أو قريبةً منها، فهو إلى بطولته النادرة في المعارك الوطنية، يتميز في الحياة الاجتماعية بطيبوبة ومجاملة وطلاقة وجه وبشاشة أسارير، يفيض قلبه بالرأفة والحنان ويشمل بعطفه القاصي والداني، وسع بره جميع أفراد رعيته فهم يشعرون أنه لهم نعم الأب وهو يعدهم أبناء بررة له، ولقد غض الطرف عن كثير ممن أساءوا إليه وإلى قضية الوطن وتسببوا له وللشعب الذي هو مؤتمنٌ على مصالحه، في متاعب شديدة، وعلى رأسهم الباشا الكلاوي، فإنه عفا عنه بعد أن جاء إليه تائباً يقول: لقد خدعوني يا مولاي، فأجابه الحمد لله الذي هداك إلى الصواب، ونسي كل ما أسلفه إليه الفرنسيون، وكان كلما اعتذر إليه أحد المسؤولين في الحكومة الفرنسية يقول: لنسدل الستار على الماضي فنحن أبناء اليوم.

وكان إلى هذا الخلق السَّمْح وهذه النفس الرضية، متديناً في غير غلو، محافظاً على التقاليد في غير تزمت، فهو رياضي ماهر، ممتاز في كرة المضرب، وفي ركوب الخيل، وفي الصيد، وفي السياقة، ولقد حدث ذات مرة أنه كان

يسوق سيارة صغيرة من نوع سيمكا، في أحد شوارع العاصمة، فوقف بجانب الطوار في مكان لا يسوغ التوقف فيه، ودخل صيدلية لاقتناء بعض الأدوية، ولما خرج وركب السيارة جاء شرطي المرور ونبهه إلى المخالفة التي ارتكبها وسأله عن اسمه فقال له محمد بن يوسف فقال له: ما حرفتك؟ فقال له: ملك المغرب،فانتبه الشرطي حينئذ إلى جلالته وأدى له التحية وهو يعتذر فقال له: لا عليك لقد أديت واجبك، وحقك أن تكافأ.

إن الحديث عن محمد الخامس شيق ولا يمل، ويا ليتنا كنا نستطيع أن نقف عند هذا الحد، ولا نشير إلى الفاجعة التي أصابت المغرب والأمة الإسلامية جمعاء بفقده وانطفاء نور حياته في يوم الأحد ١٠ رمضان ١٣٨٠ الموافق ٢٦ يبراير ١٩٦١ أثناء إجراء عملية جراحية له في مصحة القصر، ولكن لا راد لما قضاه الله وكل نفس ذائقة الموت. وقد خسر المغرب والعالم العربي والإسلامي بوفاته رجلاً عظيماً على فقر هذه البلاد في الرجولة، وخسرناه في عنفوان رجولته التي كان متوقعاً أن يعمل فيها كثيراً وكثيراً جداً لصالح العروبة والإسلام والإنسانية على العموم قدس الله روحه وطيب ثراه وبوأه مكان صدق عنده مع الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.


محمد بن عبد الكريم الخطابي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٢٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

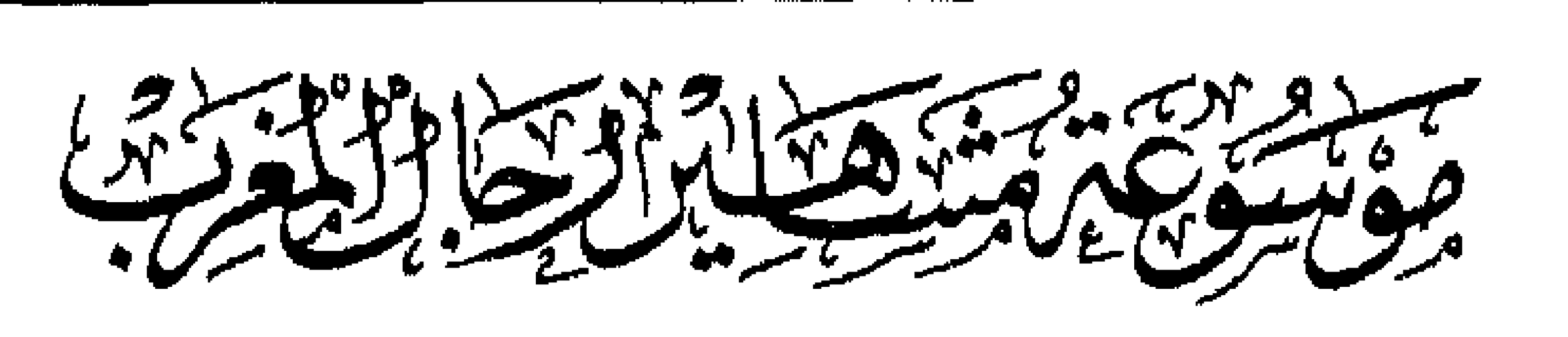
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



47

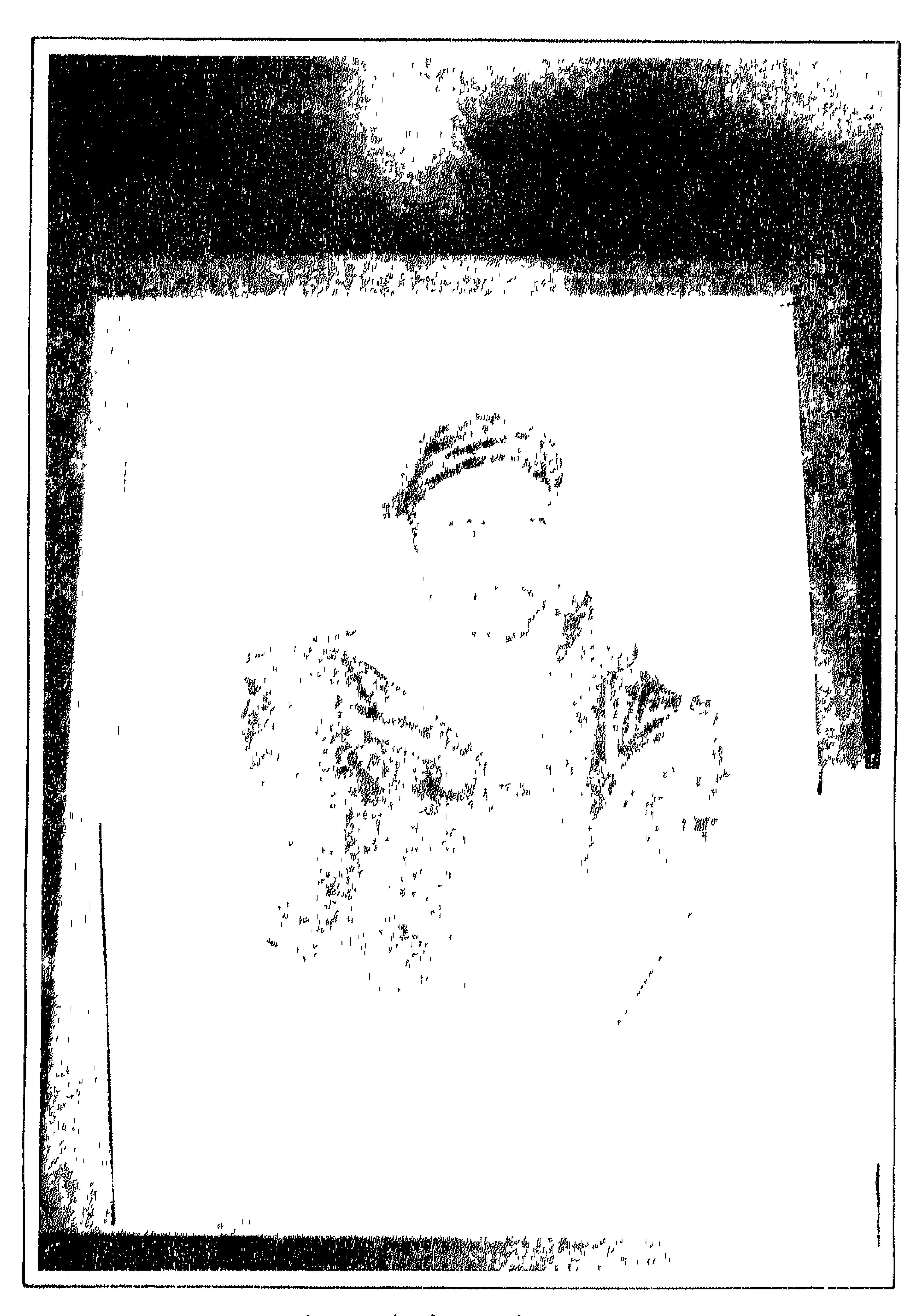
محمد بن عبد الكريم الخطابي

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت



صورة زعيم الريف في لباسه القومي.

محمد بن عبد الكريم الخطابي

اسمه ونسبه ـ نشأته وتكوينه ـ توليه لبعض الوظائف في مليلية ـ وقوفه مع والده ضد الاحتلال ـ إعلانه الثورة على الاحتلال ـ تنظيمه للمجاهدين ـ تصديه لجيش الاحتلال الإسباني في كل المواقع ـ انتصاره على الإسبانيين في معركة أنوال الشهيرة ـ صدى هذه المعركة في الأوساط الاستعمارية ـ توجس الفرنسيين في منطقة الحماية الفرنسية من ثورة الريف وتعرضهم لها ـ تواطؤ الفرنسيين والإسبانيين ضده ـ مؤتمر للصلح بين الأطراف الثلاثة بوجدة ـ انتكاس الثورة واستسلامه للجيش الفرنسي ـ نفيه إلى جزيرة لرينيون ـ التجاؤه إلى الحكومة المصرية ومقامه في أرض الكنانة ـ نشاطه الإسلامي في القاهرة ـ وفاته.

هو المجاهد المبرور بطل الريف وموقد نار الثورة على الاستعمار الغربي في إفريقيا وآسيا محمد بن عبد الكريم الخطابي الريفي، نسبة أولاً إلى آل خطاب فخدة من بني ورياغل إحدى قبائل الريف الكبرى، وهي ترجع إلى أصل عربي قديم، وأما ثانياً فإن الريف الذي ينتسب إليه المترجم إقليم كبير معروف في المغرب بهذا الاسم، ولا يعني معناه اللغوي الذي هو مقابل الحضر، وبيناه لدفع التوهم عند بعض الناس وخصوصاً إخواننا في المشرق العربي.

ولد في ١٣٠٤ هـ مقابل ١٨٨٨ تقريباً ببلدة أجدير، وكان والده السيد

عبد الكريم من الفقهاء، تولى القضاء في قبيلتهم بني ورياغل فحرص على تعليمه وتربيته تربيـة عاليـة، وأرسله إلى فاس العـاصمة العلميـة للمغرب ليستكمل دراسته بجامعة القرويين، وكـان والدنـا الشيخ عبـد الصمد من شيوخه الذين لازمهم في دروسه الفقهية والعربية، وقد حدثني بأنه كان يقرأ عليه نظم الاستعارة المعروف للشيخ الطيب بن كيران، ويذكر تقرير الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ وما قاله الأستاذ منديل ابن آجروم من شعر في ذلك كما ذكره لهم الوالد، وكأنه يذكر شيئاً إنما حدث يومه من شدة استحضاره للواقعة وحفظه للشعر، وقد بقي على صلة بالوالـد إلى ما بعـد ثورته، يكاتبه ويسأله عن بعض المسائل ويوصيه ببعض طلبة الريف الذين كانوا يدرسون بطنجة وأرسل له الوالد كمية من نسخ أربعين حديثاً في فضل الجهاد والحض عليه من تأليف الجد سيدي التهامي بالمطبعة الفاسية ليوزعها على المجاهدين وتطورت الأحوال بابن عبد الكريم بعد رجوعه من فاس فعمل في التعليم وفي الإدارة بمدينة مليلية الخاضعة للإسبان ثم قاضياً بها، لكنـه اختلف مع الولاة خاصة الضباط العسكريين فانتقموا منه بسجنه، وقيل إن سجنه كان للتأثير على والده الـذي كان يجنـح للمقاومـة والوقـوف في وجه الإسبان لإخضاع القبائل الريفية وتطويعها للاستعمار الإسباني، وقد دبر لهروبه من السجن فوقع وأصابه كسر في إحدى رجليه كان سبب عرج خفيف صاحبه طول حياته.

وبعـد هذه الحـادثة كشف والـده عن وجهه وبـارز الإسبان بـالعداوة هـو وولده، وكان قبل يداريهم وإن تحرش بهم أحياناً. وكان قد أرسل ولده الثاني محمد فتحا إلى إسبانيا للدراسة العصرية واختـار قطاع المعـادن والتخصص

فيها، لما كان يروج من احتمال الاتفاق بين الإسبان والريفيين لاستغلال معدن الحديد بالخصوص من معادن جبال الريف، وكان الأجانب يتحلب ريقهم ويتنافسون في الحصول على تصريحات رسمية من حكومة المغرب بذلك، أو اتفاقيات بينهم وبين رؤساء القبائل المغربية ذات النفوذ المحلي في إقليمهم، وكان منهم شركات ألمانية وفرنسية وإسبانية وغيرها في الفترة التي ضعف فيها نفوذ الحكومة المركزية على الأطراف والنواحي النائية، وهذا قبيل بسط الحماية الأجنبية على البلاد وتصفية الحسابات بين الدول الاستعمارية المتكالبة على مراغمة المغرب واحتلاله بوجه من الوجوه، وكان من أشدها حرصاً على ذلك فرنسا وبريطانيا ثم ألمانيا فإسبانيا، وانسحبت ألمانيا بتنازل فرنسا لها عن إحدى مستعمراتها بإفريقيا، ووقفت بريطانيا موقف التربص بعد الاتفاق الودي الذي انعقد بينها وبين فرنسا سنة ١٩٠٤ لما تعهدت لها هذه بغض الطرف عن وجودها في مصر، ولكنها بقيت تجاذب الحبل كلاً من فرنسا وإسبانيا بعدم موافقتها على دخول منطقة طنجة في نفوذ أي منهما، طمعاً في الانفراد بها نظراً لوقوعها في مقابلة جبل طارق وهو وضع استراتيجي مهم.

وأبرمت الحماية الإسبانية والفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢ على أساس تقسيم البلاد إلى منطقة جنوبية وأخرى شمالية استبدت فرنسا بالأولى وإسبانيا بالثانية، مع تأكيد خضوعها للسلطان الذي يقيم في المنطقة الجنوبية ممثلاً بخليفة له من الأسرة المالكة في الشمال، ولم يكن الإعلان عن عقد الحماية بالخبر العادي فقد وقع وقوع الصاعقة على المواطنين في الحضر والبدو والجبل والسهل وكانت البلاد تغلي كالمرجل للأخبار والشائعات التي سبقت هذه الحماية أو صاحبتها، وبعض الناس يظنون أنها مساعدة تقنية أو استشارية

ولكن السواد الأعظم لم يكن راضياً عنها حتى بهذه الصفقة وما عتم الأمر أن ظهر أنها تدخل سافر في شؤون الحكم والأمور الداخلية للبلاد فلم يكن من السلطان الذي عقدها وهو مولاي حفيظ إلا أن تنازل عن الحكم وأحال الأمر على أخيه مولاي يوسف، وأما الشعب فإنه قام في وجه الحماة وتنظيماتهم العسكرية والمدنية في المدن والقبائل بالشمال والجنوب، وثارت ثائرة جل القبائل وأشعلوها حرباً دامية على الدخلاء ومن تعاون معهم من المواطنين ووقعت مذبحة فاس الشهيرة، وقد كان ضحاياها من الجانبين الاستعماري والوطني فظيعة ثم كانت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ضغثاً على إبّالة، وهي فرصة ثمينة ضيعها المواطنون بعدم الاتصال بين الثوار في الشمال والجنوب والسهول والجبال والمنطقة الوسطى وافتقاد زعيم يؤلف بين هذه التيارات المندفعة من كل جهة، ويقودها بخبرة وحنكة في اتجاه طرد الأجنبي وإحباط محاولته لابتلاع المغرب، وقد دامت هذه التحركات الثورية إلى سنة ١٩٣٦ أي ستة وعشرين عاماً أو تزيد، حين تمكنت فرنسا من إخمادها.

ولم تكن المنطقة الشمالية التي وقعت تحت الحماية الإسبانية ببعيدة عن هذا الانفجار، يعم الناحية الجبلية ثورة عارمة، وفي المنطقة الغربية الوسطى كذلك مقاومة متصاعدة، وفي الريف، وهو الذي يعنينا كانت المصادمات بين القبائل المجاورة لمدينة مليلية المحتلة والإسبان لا تفتر قبل بسط الحماية، وكان الذي يتزعمها هو الشريف سيدي محمد أمزيان وقد سقط شهيداً في إحدى الوقائع الحامية، ثم تولى أحرار الريف التصدي للإسبان ومحاولتهم الانسياح في أراضيهم، بعد عقد الحماية، وكان منطلق العمليات الجهادية من قبيلة بني ورياغل التي تعتبر أهلها قريش الريف، وهي قبيلة كبرى ومتعودة على القتال

ويقر لها قبائل الريف بالزعامة، وقد كان السيد عبد الكريم الخطابي هو المقدم فيها، وقاضيها، ومقامه في قرية أجدير منها كما سبق القول، وهو والد المجاهد الأكبر محمد بن عبد الكريم، وقلنا إنه|كان يداري الإسبان، كما إنهم يدارونه لما يعلمون من نفوذه وشخصيته القوية فلما تحرك هؤلاء في اتجاه احتلال القبائل الريفية الحرة، وقف في وجههم وعارض تقدمهم وناوش معسكراتهم المنبعثة من مليلية وقلعة القبيلة المتاخمة لها، لكنهم كانوا يتربصون قليلاً ريثما يعدون العدة الكافية للعملية الكبرى، فلما تجهزوا التجهيز الكامل قاموا بحملة قوية اكتسحوا فيها عدة نقاط واحتلوا موقع تافرسيت الذي يصل مليلية بالحسيمة، وذلك في سنة ١٩٢٠ فحينئذ قوي عزم السيد عبد الكريم على مواجهة الجيش الإسباني فقام هو وابناه محمد الكبير ومحمد الصغير وأخوه السيد عبد السلام ومن انضم إليهم من المحاربين الشجعان من بني ورياغل والقبائل الأخرى واشتبكوا مع الجيش المغير في معارك ضارية استشهد فيها القائد السيد عبد الكريم وآخرون من المجاهدين المبرورين، ولم يكن ذلك عن نقص في الكفاءة والخبرة العسكريين، ولكن لنقص في العدة والسلاح وقد ثبت المجاهدون ثباتاً أثار إعجاب العدو، وكان يظن أن موت القائد يفت في عضدهم ويضعف عزمهم على القتال، فكان الأمر على العكس، إذ جد الجد وتداعى المتطوعون من كل جهة واجتمعت الكلمة على تقديم ولد القائد السيد محمد لحمل لواء القتال ومساعدة أخيه السيد محمد فتحا، وعمهما السيد عبد السلام وتكونت جبهة قتالية عتيدة لأخذ الثأر وإيقاف التقدم الإسباني عند حده. . . وكان قائد الحملة الإسبانية عنيداً مغامراً يسمى سلفستري، سبق له أن عمل في المنطقة الغربية وحقق انتصارات في العرائش والقصر الكبير وعمل أيضاً في المنطقة

الجبلية، وكان يندفع بدون إذن من رؤسائه العسكريين الكبار في واجهات مخوفة، ولكنه ينجح فيحصل على موافقة حكومته وتنوه به الصحافة الإسبانية وتثني على شجاعته.

ولما كانت منطقة الريف معروفة للإسبان بشجاعة أهلها من طول ما تحككوا بهم، وكان سكان مدينة مليلية يتعاملون معهم في الشؤون المختلفة من التجارة والخدمة وما إلى ذلك ويعرفون شدة مراسهم وقوة شخصيتهم كانوا يفضلون عدم دخولهم معهم في مواجهات قتالية، ولذلك كانت الجبهتان الجبلية والغربية مسرحاً للعمليات الحربية التي يطلقون عليها عمليات التهدئة منذ الأيام الأولى لإعلان الحماية، وإن كانوا وجدوها لا تقل عن الجبهة الريفية شجاعة وتصميماً على القتال واستماتة في الدفاع عن كيانها، وحيث ظهر أن لهذا العقيد سلفستري مبادرات تكلل أحياناً بالنجاح، فإنهم نقلوه إلى القيادة العسكرية بمليلية مكلفاً بإخضاع قبائل الريف، مع ترقيته إلى رتبة جنرال، وقد غره هذا التقدم الجزئي الذي حققه في الواجهة الريفية وكسر به الطوق الذي كان يحيطها به القادة العسكريون المقيمون في مليلية متعاطفين مع السكان المدنيين الذين لا يريدون إثارة الأسد الريفي في عرينه، فأخذ يعد العدة لهجوم ساحق مستهيناً بمحاذير العسكريين الذين استمرأوا الهدنة الطويلة التي نعمت بها مليلية وجوارها بضع سنوات، في حين كان محمد بن عبد الكريم يجوب البلاد طولاً وعرضاً وخاصة بني ورياغل وتمسمان وغيرهما من القبائل الريفية يحذرهم وينذرهم بما يبيته الإسبان لهم من مفاجآت ومصادمات وحرب تأتي على الأخضر واليابس وتنكل بالمسالم والمعاند، وقد كان لهذه الجولات أثرها في الناس روحيا وقوليا، وجعلت الحماس يتقد في صدور الرجال فينبعثون للتطوع

والاستعداد، ولمقابلة الأجنبي المغير بما يملكون من نفس ونفيس، ونية صادقة في الجهاد.

نعم إن كان المستعمر الغاشم قد اعتمد في احتلال الريف على عسكري متحمس صاحب مغامرات وموروثات صليبية. فإن المغرب بعد اعتماده على الله قد أتيح له رجل مؤمن متحمس لحرية بلاده وكرامة شعبه ونصرة دينه مع إخوان له متفانين في رد الظلم والتمسك بعقيدتهم والعمل من أجل بلوغ الهدف المشترك وهو تطهير البلاد من رجس الاستعمار، ولئن كان العدو قد بالغ في الاستعداد وحشد الأجناد وتزويدهم بالعتاد الحربي الحديث فإن هؤلاء المعتدى عليهم ليس معهم إلا بعض البنادق والذخيرة القليلة والمفرقعات البدائية المصنوعة بأيديهم، إلا أن إيمانهم أقوى من الحديد والنار وأرسخ من الجبال وأثبت من الحصون الشاهقة، وسيظهر الواقع أي الجانبين ستكون له الغلبة، المادة المتعجرفة أم الإيمان المتأجج؟.

وقد عرفنا مما سبق أن سلفستري كان مؤمناً بالقوة إلى حد بعيد، وأنه يرى الحل الوحيد لتوطيد الاستعمار يكمن في استعمال القوة وقد غره ما حصل عليه من انتصار جزئي في احتلال النقاط التي بين مليلية وتفرسيت فهو يحدث نفسه باقتحام قبيلة بني ورياغل والوصول إلى الحسيمة في أقرب وقت وبأقل مجهود ولكنه يتخذ الاحتياط ويأخذ حذره من رد فعل يهدم ما بناه فلذلك جمع الطِّمّ والرِّم من جيش مليلية وحاميتها من الإسبان والمجندين الأجانب، في حين أن ابن عبد الكريم والمجاهدين الذين معه لم يكونوا يفكرون في أكثر من استرجاع المحطات التي احتلها قبل تفرسيت، ليس ذلك استهانة بالعدو الذي

يعلم من تهوره وإقدامه ما يصفه به أبناء جنسه، وعلى رأسهم المقيم العام الجنرال بيرنيكي الذي كان يعرف أن إخضاع المغرب بالقوة غير ممكن ويتبع الطرق السياسية في استمالة رجال القبائل والتضريب فيما بينهم ولا يلجأ إلى القوة إلا في الحالات النادرة، وسلفستري وإن كان مرؤوساً له لا يأخذ برأيه في ذلك ويقدم على المخاطر متحملاً مسؤوليتها، وهي خطة كانت تعجب بعض رجال الحكم في إسبانيا لأنهم يؤملون حل مشكلة المغرب على عجل.

وقد جرت فعلاً بعض المناوشات مع حاميات المواقع المحتلة سابقاً ومع بعض الدوريات العسكرية المتجولة فيما حول تلك المواقع، وبعضها كان له تأثير على نفوس المقاتلين الإسبان وإن لم يأبه به كبار القادة، وذلك مثل استرجاع جبل ابران ومعركة سيدي إبراهيم من المواقع الحربية في قبيلة تمسمان - وبالعكس كانت هذه الاصطدامات مؤذنة للمجاهدين بما يعقبها من هجوم الجند المعبأ من مليلية، فلم يغتروا بها واتخذوا أهبتهم وأجمعوا أمرهم على القتال ومقابلة عدوهم بما يلزم من الحيطة والحذر - وبقي الموقف بين أخذ ورد واشتباكات عارضة يكون الفوز فيها، للمجاهدين الذين يتحرقون إلى لقاء حاسم بينهم وبين عدوهم الكاره للقتال والمتوجس من مواجهة الريفيين التي يريد قادتهم أن يقحموهم فيها وهذا ما جعل زعيم العنف والاكتساح الكلي يتوقف قليلاً ويجتمع مع أركان حربه ويستعرض معهم الموقف في الجبهات المختلفة ويرى أن هجوماً عاماً للجيش على جميع المواقع لا يتوقف حتى يستولي على مراكز المقاومة ويحيط بمدينة الحسيمة فانفصلوا على ذلك ولمساندة موقفه طلب من الجنرال بيرنيكي مده بالمساعدة فأجابه هذا بأنه لا يملك شيئاً يساعده به، وكان ذلك تعبيراً عن عدم موافقته على خطته المتهورة،

فأبرق إلى الحكومة بالأمر زاعماً أنه لا يحسم الموقف وينقذ السلطة الحامية من استهزاء شراذم الريفيين إلا القضاء عليهم بصفة جماعية.

وإثر هذه التدابير التي اتخذها سلفستري بقليل شهدت مليلية استعراضاً كبيراً ضم ما يزيد عن ٢٠٠٠٠ جندي ترأسه القائد العام للقوات الإسبانية العاملة في الجبهة الشرقية الجنرال سلفستري وخروجه وهو راكب جواده في خيلاء وكبرياء إلى الجبهة، والنساء يطللن من شرفات المنازل والشابات والشباب يحيونه ويهتفون بحياة إسبانيا، فكان يوماً مشهوداً يدل على تصميم القائد واستعداده للقتال في سبيل إسبانيا والقضاء نهائياً على الثورة الريفية التي أزعجت سلطات الاحتلال.

وكان البطل ابن عبد الكريم يرقب تحركات الجيش الإسباني ويعرف نزوات سلفستري، فتصدى له بتقسيم قوات المجاهدين على مختلف الجبهات مترصداً له في كل جبهة، وهي المواقع التي كان احتلها من قبل وزحزحة الثوار عنها، وفرق فصائل المتطوعين في تلعات الجبال وعلى أفواه الطرق لاصطياد المغامرين وطلائع الجيش الذين يظنون أنهم يمهدون السبيل لمرور المقاتلة وتخييم القواد وضباط الحركة، وكانت الخطة العامة التي اصطلحوا على اتباعها أن يدعوا الجيش الإسباني يتقدم في السهول وسفوح الجبال حتى يتوغل بقطع المدفعية وقوافل التموين التي يسهل عليها اجتياز هذه المسالك، فحين يحاول نقلها إلى المواقع الجبلية والدروب الصعبة يقابلونه بما يمنعه من التقدم ولو بشبر واحد، ويضاعفون ما كانوا يواجهونه به من القتال، وهو يتقدم رداً على مدفعيته التي كانت تقذف حمماً هنا وهناك بقصد إخلاء السبيل له وتشتت تجمع

المجاهدين، وحمي القتال وتساقط الجنود المهاجمون بالعشرات وفر كثير من ساحة الهجوم لائذين بقوادهم ورأى سلفستري أن لا قبل له بهذه الطريقة التي يسلكها المجاهدون وهي حرب العصابات التي تنال منه ولا ينال هو منهم شيئاً، فقرر تجميع قواته في جبهة واحدة تمكنه من اختراق صفوف الأعداء والاستيلاء على المركز الذي تكون مرابطة فيه ومنه ينطلق إلى مركز آخر، وقد استقر في معسكر أنوال، إذ كان أهم تلك المواقع التي جرى فيها القتال من غير نتيجة، وبتحوله هذا أحاط المجاهدون الجيش الإسباني وحاصروه بحيث أصبح لا يستطيع تقدماً ولا تأخراً وكثر القتال فيه وامتلك الذعر والرعب أفراد الجيش والضباط المسؤولين عنه وأصبح الفرار هو الوسيلة الوحيدة للمقاومة ولكن بنادق المجاهدين كانت تحصد الفارين حصاد الهشيم، وكان المنهزمون يولون وجوههم نحو مليلية وهم في حالة من الاضطراب لا توصف وسيطر اليأس على نفوس بعض الضباط فصاروا ينتحرون وتمت الهزيمة وتبع المجاهدون أرتال المنهزمين إلى قريب من مليلية، وكان من السهل عليهم أن يقتحموها ولكن ابن عبد الكريم نهاهم عن ذلك ومنعهم منعاً كلياً خوفاً من عواقب ذلك الاحتلال، فاكتفوا بقتل من قتلوه وأسر من استأسر وكانوا يلقون بسلاحهم وثقلهم، فيقرنون في الجبال ويساقون إلى المعتقلات وأما الجنرال القائد العام فإنه لم يكن بدعاً من جنده وضباطه إذ انهارت معنوياته وأصيب بكلل لم يبق معه تدبير وتذكر خروجه من مليلية التي كان يُحَيَّى فيها كفاتح عظيم فلم يقبل أن يرجع إليها منهزماً مدحوراً ولم يملك إلا أن ينتحر اتقاء للشماتة والعار، وهذا ما اتفق عليه تقريباً كل المؤرخين من عرب وأجانب، وقال الأستاذ أحمد البوعياشي في كتابه حرب الريف التحررية نقلاً عن شاهد

عيان أن بعض المجاهدين صوب إليه بندقيته وهو قد استولى عليه الذهول والحيرة فأرداه قتيلاً، وعلى كل فإنه لم يوجد ولا عثر على شلوه بين الأموات.

ولم يكن هو الوحيد من الجنرالات والضباط الكبار الذين انتحروا واستسلموا وسلموا المراكز التي كانوا يحتلونها بما فيها من القوة العتاد، فعددهم كثير وقد أعطوا بذلك أسوأ مثل للجنود العاديين الذين تفرقوا أيدي سبأ.

وقد وقعت هذه المعركة في يوم ٢١ يوليو ١٩٢١، وهي تسمى بالموقع الذي جرت فيه، وهو موقع أنوال فلا تعرف إلا به فيقال لها معركة أنوال، وإن كانت أحداثها قد شملت عدة مواقع، وكانت معركة حاسمة من أكبر المعارك التاريخية التي جرت بين المغرب وإسبانيا كمعركة الزلاقة أيام المرابطين ومعركة الأرك في أيام الموحدين وكمعركة وادي المخازن بيننا وبين البرتغال وكان لها صدى بعيد في العالم الغربي والدول الاستعمارية بالخصوص لأنها لقنت لجنود الاحتلال الأجنبية درساً لن تنساه أبداً وهو أن الاعتداد بالإيمان والتصميم وإرادة الحياة، لا بالقوة المادية والعدد العديد من المقاتلة، ولن يكون تصميم المدافعين عن حقهم، والمقاتلين عن حرية بلادهم بمواز أبداً للمتسلطين والغزاة الذين لا يدافعون عن حق ولا يقاتلون في سبيل غاية شريفة، ومن المحقق أن ثورة ابن عبد الكريم هذه وما حف بها من النصر والنجاح كانت مثالاً يحتذى ونموذجاً اتبعه كثير من الأقطار المبتلاة بالاستعمار الأجنبي، وأتى ثماره في كسر شوكة الاستعمار الغربي وخصوصاً في إفريقيا.

وفضلاً عن انهزام الجيش العرمرم الذي قدمنا أنه يزيد على عشرين ألف جندي، أمام ثلة من المجاهدين الريفيين تفرقت في المواقع المختلفة التي

هجم منها العدو بما لا يتجاوز بضع مئات في كل موقع، ولا يتعدى عند جمعه ثلاثة آلاف مقاتل، فإن ما غنمه هذا العدد المحدود من قوة العدو يبلغ ثلاثة آلاف بندقية وأربع مائة مدفع رشاش، ومائة وثلاثين مدفع ميدان وذخائر أخرى مادية من دواب وآليات ومؤن وغيرها ونحو ألف أسير من مختلف الدرجات العسكرية . .

والغنيمة الكبرى هي اعتراف الإسبان للشعب الريفي بحقه في العيشة الكريمة والحرية المنشودة وإيقاف العمليات الحربية ضده، على شرط أن يخضع البطل المنتصر لولاية الخليفة السلطاني بتطوان تحت الحماية الإسبانية وقد رفض هذا العرض بإباء وشمم ولم يقبل إلا الاستقلال التام مع الخضوع طبعاً لسيادة السلطان وممثله في المنطقة حفاظاً على الوحدة الوطنية.

لم تكن معركة أنوال لتضع حداً للحرب الريفية الإسبانية، فالإسبان لم يستسيغوا هذه الهزيمة الشنيعة واعتبروها عاراً على شرفهم العسكري وإن كانوا خرجوا منها منهارين لا يستطيعون الخوض في حرب ثأرية لأنّهم لم يضمدوا جراحهم على القتال والمجاهدون الريفيون تحت نشوة الانتصار لم يكونوا مستعدين لإيقاف القتال وقد اتقد حماسهم فاندفعوا في كل الواجهات لا سيما مع الغنيمة الحربية التي زادتهم قوة واستئساداً وقد كانوا هموا باقتحام مدينة مليلية وما ردهم عنها إلا القائد محمد بن عبد الكريم لتفكيره في عواقبها العسكرية وربما السياسية التي تدول حرب الريف لهذا انطلقوا في كل جهة حتى الواجهة الغربية فاحتلوا مدينة شفشاون ووضعوا يدهم في يد المجاهدين من قبائل جبالة وما إليها، وتسربوا إلى المنطقة السلطانية فاشتبكوا مع جيش الاحتلال الفرنسي واتسعت الدائرة فوصلت طلائعهم إلى ناحية فاس.

والكلام في ذلك يطول، ونحن لا نكتب تاريخاً للحرب التحريرية الريفية والجبلية وإنما نكتب عن حياة المجاهد ابن عبد الكريم، فنضطر إلى الإلماع بإيجاز لبعض مواقفه الحربية وتطور ثورته بين الشمال والجنوب والمنطقتين الخليفية والسلطانية، وهو المنعطف الجديد الذي أفضى بهذه الحرب الوطنية إلى نهايتها التي لم تكن لتخفى على الملاحظين السياسيين فأحرى الزعيم القائد الذي كان يباشر العمل في الجبهتين الشرقية والغربية ويقدر مسؤوليته العسكرية ويحترز في كل خطوة يخطوها حتى لا يقع في ورطة أو يرتكب غلطة يصعب التفصي منها».

والحقيقة أن ابن عبد الكريم كان يتجنب الاصطدام بالفرنسيين منذ نشوب الحرب بينه وبين الإسبان، بل يجاملهم ويجاملونه، ولربما كان ذلك منهم توقياً من أن تتصل ثورة الجنوب بالشمال، واعتقاداً باستقلال المنطقتين حتى في ثورتهما فما عليهم إلا أن يشتغلوا بما تحت نفوذهم كاشتغال الإسبان بثورة الريفيين ولا خوف عند الجانبين من امتداد الثورة إلى حد التعاون والتضامن. وهذا إلى حين انتصار الريفيين في معركة أنوال التي هزت عالم الاستعمار وتردد صداها في جميع الأنحاء، هنالك انتبه الفرنسيون من غفلتهم وبدأوا يحسبون لحرب الريف حسابها ولم يكونوا على صلة بالأسبان في هذا الصدد وإنما كانوا يتتبعون أحداثها وينظرون في عواقبها، وأخذوا يراقبون الحدود بين المنطقتين ويقيمون حزاماً ونقاطاً حربية في بعض المواقع الاستراتيجية من القبائل المتجاورة. . . لا سيما وأنهم كانوا يلاحظون تسلل بعض المجاهدين من بلاد الريف إلى الجنوب على ما أشرنا إليه حين منع القائد العام المجاهدين من تجاوز حدود مليلية فانتشروا في القبائل المتجاورة. . . لا سيما وأنهم كانوا يلاحظون

تسلل بعض المجاهدين من بلاد الريف إلى الجنوب على ما أشرنا إليه حين منع القائد العام المجاهدين من تجاوز حدود مليلية فانتشروا في القبائل الجنوبية وانضم إليهم مجاهدو القبائل وتكونت من الفريقين قوة ضاربة في الجبهة الغربية وصلت طلائعها إلى ناحية ورغ وأصبحوا يهددون نواحي فاس ووزان فانضم كثير من أبناء هذه الجبال المعروفين بشدة شكيمتهم في القتال وغيرتهم على الدين ونقضت العهود بين الفرنسيين وحلفائهم من الزعماء وشيوخ الطرق والزوايا ذات النفوذ الروحي في المواطنين كأهل زاوية بني زروال وغيرهم الذين فروا إلى فاس وعوض ما ينضمون إلى المجاهدين ويحضون الناس على القتال في سبيل الله فضلوا الانحياز إلى جانب المستعمر والاحتماء برايته.

وإذا كانت معركة أنوال انتهت سنة ١٩٢١ فإن الجو استمر على ما هو عليه إلى سنة ١٩٢٥ حين فاتحت فرنسا إسبانيا في توحيد العمل ووضع خطة مشتركة بينهما لمقابلة الثورة الريفية والقضاء عليها قبل أن تزيد استفحالاً وكان في أول ما اتفق عليه محاصرة مناطق القتال ومراقبة الشواطىء لمنع وصول المواد الحربية إلى الثوار وكذلك مواد التموين والآليات والدواء، وكل ما يمكن الانتفاع به في تدبير المصالح العامة، وكان الزعيم ابن عبد الكريم في هذه الفترة من الزمن يشرف على تسيير أجهزة الحكم وتنظيم الإدارة ومراقبة السياسة الخارجية ومقابلة الصحفيين والسياسيين الأجانب للرد على الاتهامات التي يوجهها الخصوم إلى الثورة وإعطاء التصريحات التي تبرِّىء عمله من كل تدخل خارجي وبيان مطالبه التي تنحصر في حرية بلاده ودفع سلطة الأجنبي عنها إضافة إلى تسيير دفة الحرب التي كان يستعين فيها بأخيه السيد محمد ويعتمده في ماجرياتها الخاصة والعامة والطوارىء اليومية كانت الاصطدامات

العسكرية تتابع بين المجاهدين والطرفين الاستعماريين الفرنسيين والإسبانيين، والاتصالات بين مدريد وباريس لا تنقطع في تقوية زحفهما على المقاومين من المنطقتين، ويظهر أن هذه الاتصالات كان يدفعها شدة الرغبة في إيقاف القتال ومن ثم تعددت الاقتراحات في الصلح وجس نبض ابن عبد الكريم الذي لم يضعف أبداً مع تحمله من وطأة الحصار وشدّة المؤونة ما لا مزيد عليه كما يظهر أن كل جانب من الخصمين كان يبحث عن صلح مع الزعيم الخطابي خاص به، ولذلك أبرما اتفاقاً بينهما على منع أي صلح منفرد، وكانت الوفود لا تني تتقاطر على أجدير بمشروع لا يلقى من زعيم الريف إلا الرفض المطلق، ونحن نرى أن الفرنسيين لو وجدوا من ابن عبد الكريم قبولاً لترك القبائل الخاضعة للنفوذ الفرنسي لما ترددوا في الاعتراف ولو باستقلال إقليم الريف لا سيما وأن الظرف كان يساعد على تقسيم المغرب إلى مناطق وولايات ذات نظام خاص.

أما الإسبان فإنهم بعد المساندة الفرنسية قويت نفوسهم وغيروا موقفهم من الصلح وصار موقفهم أكثر تشدداً وغيروا القيادة العسكرية أكثر من مرة كما فعل الفرنسيون، الذين جاؤوا بكبار قادتهم العسكريين ممن شاركوا في الحرب العالمية العظمى، وما دام القائد ابن عبد الكريم لا يقبل صلحاً ولا مفاهمة فإنهم عولوا على استئصال الحركة وانتزاع الأراضي التي احتلها الجيش الريفي من أيديهم في الدفعة الأولى، كما قلت آنفاً فإننا لا نؤرخ للحرب الريفية ولا نعنى بتفاصيلها حتى إذا اشتد الضغط على المجاهدين وشعر الزعيم ابن عبد الكريم بثقل الحمل الذي يواجهه في الجبهتين، وانقلب ميزان القوة لمصلحة المستعمرين صار حينئذ يقبل الاقتراحات التي يحملها إليه وسطاء الخير حتى أدى الأمر إلى عقد مؤتمر وجدة للصلح في أبريل ١٩٢٦ والذي انفض بدون

نتيجة لأن مقترحات كل من الإسبانيين والفرنسيين لا تقبل، وأدرك مندوبو ابن عبد الكريم في المؤتمر أن مفاوضيهم أصبحوا يتكلمون من مركز القوة وأن خطتهم موحدة ولا فرق بينهم كما كانوا يعهدون من قبل بمدريد وباريس عقد العـزم على تصفية الثورة الريفية بلا هوادة.

وعندما علم ابن عبد الكريم بالأمر لم يسعه إلا متابعة القتال، ولكنه اصطدم بالأمر الواقع فالحصـار الذي ضرب عـلى شواطىء الـريف ظهرت نتيجتـه بكـل وضـوح فلم يبق هنـاك منفـذ لاستـيراد السـلاح ولا المـؤن الضرورية، وكل ما كان بيد المجاهدين إنما كان من الغنائم الكبرى التي لم تسمح الوقائع بمثلها، وقد سدت الطرق في وجه القبائـل المقاتلة، فكـانت العسكرية الإسبانية تتعرض لرواد الأسواق من المدنيين فتسلبهم ما تزودوا به منها وتمنعهم من ارتياد المدن المجاورة لبيع منتجاتهم واستبدالها بغيرها مما هم في حاجة إليه، وكنا نحن في طنجة نرى بالعين المجـردة كيف كانت الأضـواء المشعة في الليل تسلط على الطرق الجبلية بين طنجة وقبيلة أنجرة وكلما كشفت قافلة من المتوجهين إلى طنجة رمتها بقذائف المدفع فشتتهـا وقتلت منها من حضر أجله من النساء والرجال والحال أن المدينة المقصودة مدينة دولية النظام يحكمهـا ثمان دول أوروبيـة إلا الثامنـة فإنها أمـريكا ولا نـاهي ولا منتهي بـل ان الطائرات الإسبانية كانت تقصف نهاراً جهاراً عدداً من القرى فتتطاير أشلاؤها بمرأى ومسمع من الجاليات الأجنبية ومراسلي الصحف الغربية الكبرى كالتايمز التي كان لها مراسل مقيم في طنجة فتصدر وبها تفاصيل عن تلك الأحداث بحيث لا يبقى أحد لم يطلع عليها في أنحاء العالم، الخلاصة أن الثورة دخلت في طور الانتكاس ولم يبق باليد ما يتلافى به الوضع المنهار فلا عجب أن رأينا

البطل بعد أيام من مؤتمر وجدة يسلم نفسه لقيادة جيش الاحتلال الفرنسي وينهي الحرب قبل أن تنتشر جنود الاحتلال في القبـائل وتستبيحهـا مدافـع الانتصار والانتقام .

ولا حاجة بنا إلى ذكر ما حصل بعد التسليم إلا أن الفرنسيـين نقلوا الزعيم إلى فاس وبعدها نفوه إلى جزيرة لرينيون بالمحيط الهادي هو وأخـوه السيد محمد والسيـد عبد السـلام ونساؤهم وأولادهم وسـائر أفـراد الأسرة القريبة .

أسدل أستار على أعظم ثورة وطنية على الاستعمار الأوربي في إفـريقيا وأبعد بطلها إلى أقاصي البلاد ولكنه بقي ماثلاً في أذهان مواطنيه والشعوب المغلوبة على أمرها في إفـريقيا وآسيـا التي اتخذت منـه مثالاً للتـذمر ورفض السيطرة الأجنبية فما تلبث أن تسمع عن حركة أو انتفاضة شعبية هنا وهناك على غرار ما قام به ابن عبد الكريم .

وبقي أسد الريف رابضاً على مضض في الجزيرة المنفى مدة عشرين سنة لا يشكو من شيء إلا من موقع هذه الجزيرة وسوء مناخها حتى صدر الأمر بنقله إلى فرنسا وفيها كان يطوي مراحل العودة إلى الغرب كان يفكر في مستقبل بلاده وما تخبئه الأقدار، وحين دخل إلى قناة السويس ووقفت الباخرة الفرنسية التي كانت تقله هو والأسرة ببور سعيد اغتنم الفرصة فطلب إذناً بالنزول إلى أرض مصر ليتفرج على آثارها ورؤية معالمها الحضارية وما هو إن وضع قدمه على اليابسة حتى أسرع بطلب اللجوء السياسي من سلطات البلاد والإقامـة الدائمة فيها فلقي طلبه ترحيباً واستقبالاً حافلاً من الشعب المصري وملكه

وسقط في يد الفرنسيين وعبر المصريـون عن اغتباطهم بـإقامـة هذا الـزعيم الإسلامي فيما بينهم وردوا على الاحتجاج الفرنسي بأن حق اللجوء السياسي حق قانوني لطالبه حتى ولو كان هذا الطالب فرنسياً فكيف وهو مسلم عربي، وحيت الصحافة المصرية والشعب المصري وقادته السياسيون القائـد المغربي البطـل وكانت فرصة لاجتماع القادة الوطنيين والطلبة حول ابن عبد الكريم وإقامة الاحتفـالات بتحرره وإفـلاته من قبضـة المستعمر الغـاشم، وكانت القاهرة في ذلك الوقت قد تهيأت لخلافه اسطانبول عاصمة الخلافة العثمانية، فصارت كعبة لكل الأحرار ومقصداً للزعماء العرب والمسلمين، فتصدر ابن عبد الكريم بينهم وصار لا تقام حركة إسلامية ولا ذكرى وطنية إلا ترأسها وكان واسطة عقدها.

وهكذا كتب له أن يختم حياته بما برأها به من مناصرة الحق وإعلاء راية الإسلام والحرية على صعيد العالم العربي والإسلامي إلى أن وافته المنية في شهر رمضان عام ١٣٨٣ هـ رحمه الله وجازاه جزاء المحسنين.

سابق البربري

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري
٢٣ شارع قصر النيل ـ القاهرة ـ ج.م.ع
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٦١ ـ ٣٩٢٤٢٠١ ـ ص ب ١٥٦ ـ الرمز البريدي ١١٥١١
برقياً: كتامصر ـ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
TELEX No : 23081-23381-22181-21881
ATT: MR.HASSN EL-ZEIN
FAX : (202) : 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق بريستول
ت ٨٦٠٧٩٢٤ ـ ٨٦١٥٦٣ ـ ٨١١٥٦٣ ـ ص ب ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX : DKL 23715 LE
FAX (9611) 351433 بيروت ـ لبنان



48

سابق البربري

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

العلامة السيد محمد المرير يقرظ الذكريات

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

فضيلة الأستاذ العلامة مدير معهد مولاي الحسن سيدي عبد الله كنون، وصل الله سعدكم وحرس مجدكم وسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد؛ فقد وصلتني هديتكم الثمينة وتحفتكم الأنيفة النفيسة وهي ثلاثة أجزاء من ذكريات مشاهير رجال المغرب فابتهج أخوكم بطلعتها غاية الابتهاج وعدها في هذه الأعصار من أنفس الإنتاج لما فيها من إظهار ما يخفى على جل قومنا من فخار رجال مصرنا العزيز ومن دلالتها على شرف أقدار رؤسائه ووزرائه وتبريزهم في الآداب والمعارف أي تبريز فللّه دركم فقد أصبتم فيما انتخبتم وشنفتم الآذان بما صنفتم وبالأخص في ذينك الوزيرين العظيمين الفشتالي وابن إدريس فإنهما بحق الرجلان علماً وفهماً وسياسة وحكمة وحكماً المُجيدان نثراً ونظماً حتى أن أهل المغرب لو فاخروا بهما شاعري طيء لفخروا والمولى يقر ببقائكم عين العلم والآداب ويوفقنا جميعاً لما فيه إرشاد الأمة لصوب الصواب، والسلام.

وحرر بتطوان في ٢٠ محرم الحرام عام ١٣٦٩
موافق ١٢ نونبر سنة ١٩٤٩
أخوكم: محمد المرير

سابق البربري

اسمه ونسبه ـ اشتباه أمره على المؤرخين ـ من روى عنه من أهل العلم ومن تتلمذ له ـ أحاديث رويت من طريقه ـ اشتهاره بنظم الشعر ـ اختصاصه بالنظم في المواعظ والحكم ـ اتصاله بعمر بن عبد العزيز ـ إقامته في دمشق وتوليه القضاء في الرقة ـ الاستشهاد بشعره في العربية ـ مقارنة الجاحظ له بصالح بن عبد القدوس ـ بينه وبين أبي العتاهية .

أبو سعيد بن عبد الله، هكذا كناه ونسبه في تاج العروس قال: روى عن مكحول وروى عنه الأوزاعي، فهو إذن من تابعي التابعين، وممن سكن دمشق، إذ أن مكحول دمشقي والأوزاعي هو إمام أهل الشام، ويأتي في أخباره مع عمر بن عبد العزيز ما يؤكد ذلك.

لكن هناك ما يدل على أنه سكن الرَّقة أيضاً وكان إمام مسجدها وقاضي أهلها ولا ندرى إن كان ذلك قبل أو بعد سكناه دمشق، أو أنه كان من سكان الرقة وإنما يتردد على دمشق، على أن البخاري قال: يعد في الشاميين، وذلك ما يرجح العكس، كما أن هناك نصاً عن أبي عبيد الله المزراري نقله ابن عساكر يقول إنه كان مولى للوليد بن عبد الملك، فهو أموي بالولاء كطارق بن زياد ومن ثم جاءهما هذا التمكن من اللغة العربية.

وهذا الخلاف في نسبته البلدانية جعل بعضهم يقول إنهما شخصان

شامي ورقي، وابن عساكر وإن وصفه أولاً بالرقي عاد فجعلهما شخصاً واحداً، وأغرب الحافظ ابن عبد البر فجعله عربياً إذ قال عنه في كتاب جامع بيان العلم: سابق البلوي المعروف بالبربري، وبَلِي التي نسبه إليها من عرب اليمن كما هو معروف، وممن روى عنه زيادة على مكحول أبو حنيفة وربيعة بن عبد الرحمن وشعبة ومطرف والعلاء بن عبد الرحمن وغيرهم، وكذلك روى عنه زيادة على الأوزاعي موسى بن أعين وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي والسكوني وسواهم. ورويت عنه عدة أحاديث منها حديث الحلال بين. . وحديث إذا مدح الفاسق غضب الله عز وجل، وروي عنه ابن عساكر هذا الخبر: كتب مكحول إلى الحسن يسأله عن الطالب والمطلوب فجاءه جواب إن كنت طالباً فصل بالأرض وإن كنت مطلوباً فصل على الدابة. وهذا مما يدل على مشاركته في علوم الفقه والرواية والحديث.

وقد اشتهر صاحبنا بقول الشعر والإجادة فيه بحيث سارت بعض أقواله سير الأمثال، ومنها هذان البيتان:

قد ينفع الأدبُ الأبناءَ في صغر ... وليس ينفعهم من بعده الأدب
إن الغصون إذا عدَّلْتها اعتدَلت ... ولا يَلِين ولو ليَّنْتَه الخشب

نسبهما إليه غير واحد.

والمعتقد أن له ديواناً شعرياً يحتوي جميع ما قاله في الأدب والأخلاق والحكم والمواعظ، إذ هي المواضيع الغالبة على شعره، وهاك ما جاء في فهرست ابن خير دليلاً على ما ذكر:

«أخبار سابق البربري وأشعاره» حدثني بـه القاضي أبـو بكر بن العـربي رحمه الله قال : أنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي قـال : أنا أبـو إسحق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي ، قال : قرىء على أبي عمر محمد بن العباس بن زكريا بن حيوية قال : قرىء على أبي الحسن أحمد بن جعفر بن محمد من كتابه هو يسمع ، وأنـا أسمع فأقر به ، قال : كان سابق البربري فذكـر أخباره وقصيـداً واحداً ثم قصـائده بروايات مختلفة ، قال ابن العربي : تقيدت في مواضعها عندنا والحمد لله ، ولا يوجد هذا الكتـاب الآن أو على الأصح لا نعرف عنه خبراً ، ومن المؤسف حقاً أن يضيـع هذا الأثر الأدبي النفيس لشاعر ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي بقول الشعـر في لغة الضـاد والإجادة فيـه ، وهذا النبـوغ المبكر ، عـلى أثر اتصـال البربـر بالعرب إن دل على شيء ، فإنمـا يدل عـلى صحة انتسـاب هذه القبـائل المغـربية إلى الشعب العربي ، وصِدْقِ النسابة الذين يرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطانية . وما أصدق ما ينسب إلى تماضر بنت قيس عيلان ترثي أخاها برا ، وتذكر بعده عن وطنه :

كـأني وبـراً لم تَـعِـزَّ ديـارنـا ... بـنجـد ولم نـقـسـم نهابـاً ومـغـنـمـا

وشـطت بـبر داره عـن بـلاده ... وطـوح بـر نـفـسـه حـيـث يمـمـا

وأزرت بـبر لـكـنـة أعـجـمـيـة ... ومـا كـان بـر في الحجاز بـأعجـمـا

نعم لقد استعجم بر لما غاب عن بلاده وتوحد في ديار الغربة ، وها هو لما اجتمع ببني أبيه وأخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتق لسانه في أسرع ما يكون بلغة الضاد. ويصبح سابق بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه،

وطارق من أفصح خطبائهم. ولماذا لا يكون ذلك: وإسماعيل أبو العرب المستعربة يمثل لنا نفس القصة، وإنما يعرضه عرضاً معاكساً لقصة بر؟.

أما إنه قد آن لنا أن نهتم جدياً بالمسألة، ونعرض قضية عروبة البربر على الباحثين النفسيين ونحلل هذه اللهجات البربرية تحليلاً فيلولوجياً فلا يمكن أن يكون هذا التعلق الشديد بالعرب وهذا البيان المعرب بلغتهم ظاهرتين عاديتين لا ترجعان إلى عناصر نفسية وأصول لغوية متحدة أو مشتركة. وإلا فلماذا لا يعتز الفارسي مثلاً إلا بأصله، ولم تكن إلا كلا ولا، حتى عاد إلى فَهلويته يمكن لها في بلاده بعد أن كان بلغ في العربية شأواً لا يلحق، على حين أن البربري، في عنفوان مجده وإقبال دولته لا يحيد عن الانتماء إلى الأصول العربية التي يعتقد أنه منحدر منها، وما يزال كذلك إلى الآن يُدلّ بعروبته ويرفع من شأن عربيته؟.

المسألة مهمة جداً فلينظر فيها بجد...

ونعود فنروي بعض ما وقفنا عليه من شعر صاحبنا سابق، في مطالعاتنا طول عدة سنين. وهو جملة من القصائد والقطع النفيسة في الأدب والأخلاق نُزفّها إلى الناشئة المغربية على أنها أثر من الآثار الأدبية الرفيعة التي أنتجها أبناء هذه البلاد الخصبة، وإن كان بعضهم ما يزال يتشكك في أنْ لبلاد المغرب أدَباً.

قال سابق يُزهِّد في الدنيا وهي مما أنشده له الجراوي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية:

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت　　　أن السلامة منها ترك ما فيها

والله ما قنعت نفس بِمَا رزقت   من المعيشة إلا سوف يكفيها

أمْوَالنا لذوي الميراث نجمعها   ودُورنا لخراب الدهر نبنيها

قِسْ بالتجارب أحداث الزمان كما   تقيس نعلاً بنعل حين تحذوها

والله ما عبرت في الأرض قاطرة   إلا وصرف الليالي سوف يُفنيها

ومما أنشده له الشريسي في شرح المقامات، ولعله هو والأبيات قبله من قصيدة زهدية طويلة:

نلهو ونأمل أياماً تعد لنا   سريعة المَرِّ تطوينا ونطويها

كم من عزيز سيلقى بعد عزته   ذلاً وضاحكة يوماً سيبكيها

وللحتوف تُرَبِّي كل مرضعة   وللحساب برى الأرواح باريها

لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة   حتى يقوم بنادي القوم ناعيها

ولن تزال طوال الدّهر ظاعنة   حتى تقيم بواد غير واديها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها   ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال: ولعله من هذه القصيدة أيضاً:

أين الملوك التي عن خطبها غفلت   حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

غرت زماناً بملك لا دوام له   جهلاً كما غر نفساً من يُمَنِّيها

وصبحت قوم عاد في ديارهمُ   بِمُفظعٍ يومَ عادتهم عواديها

وتُبَّعاً وثمودَ الحِجْر غادرهم   ريب المنون رمياً في مغانيها

فكيف يبقى على الأحداث غابرنا   كأننا قد أضلتنا دواهيها

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعاريض:

تعاون على الخيرات تظفر ولا تكن ... على الإثم والعدوان ممن يعاون

وداهن إذا ما خفت يوماً مسلَّطاً ... عليك ولا يحتال من لا يداهن

ولا تك ذا لونين يبدي بشاشة ... وفي صدره ضب من الغِلِّ كامن

وقال في اتباع الهوى، ولعلهما من تتمة الأبيات قبلهما:

وهجر الهوى للمرء - فاعلم - سعادة ... وطول الهوى رَيْنٌ على القلب رائن

فكن دافناً للشر بالخير تسترح ... من الشر، إن الخير للشر دافن

وقال ولعلهما منها أيضاً:

فحتى متى تلهو بمنزل باطن ... كأنك فيه الثابت الأصل قاطن

وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازن

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد:

وإن جاء ما لا تستطيعان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

وأنشد له البحتري في حماسته هذه الأبيات الأربعةَ مفردة:

استخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عَمِيتَ فقد يجلو العمى الخبر

* * *

وفي البحث قدماً والسؤال لِذي الْعَمى ... شفاء وأشفى منهما ما تعاين

* * *

إن عبت يوماً على قوم بعاقبة ... أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا

* * *

إذا عبت أمراً فلا تأته ... وذو اللب مجتنب ما يعيب

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال:

«ذِكْرُ ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه» عن أبي سليمان أحمد بن عبد الله الجواليقي قال: قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله:

بسم الذي أنزلت من عنده السور ... الحمد لله أما بعد يا عمر

إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

واصبر على القدر المجلوب وأرض به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

فما صفا لامرىء عيش يُسَرُّ به ... إلا سيتبع يوماً صفوه الكدر

واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر

قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته ... وتحكم الجاهل الأيام والغِير

إن التُّقى خير زاد أنت حامله ... والبر أفضل شيء ناله البشر

من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يهدى له الظفر

وفي الهدى عبر تسقى القلوب بها ... كالغيث ينضرُ عن وسْميّه الشجر

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بصر

والرشد نافلة تهدي لصاحبها ... والغي يكره منه الورد والصدَر

قد يوبق المرءَ أمر وهو يحقره ... والشيء بالنفس يَنمي وهو يحتقر

لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر

ولا يزال وإن كانت بها سعة ... لها إلى الشيء لم تظفر به نظر

وكل شيء له حال تغيره ... كما تغير لون اللمة الغِير

والذكر فيه حياة للقلوب كما … يحيي البلاد، إذا ما ماتت المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه … كما يُجَلّي سواد الظلمة القمر

لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً … وهل يلين لقلب الواعظ الحجر

والموت جسر لمن يمشي على قدم … إلى الأمور التي تخشى وتنتظر

فهم يمرون أفواجاً وتجمعهم … دار إليها يصير البدو والحضر

من كان في معقل للحرز أسلمه … أو كان في خَمَرٍ لم ينجه الخَمَر

حتى متى أنا في الدنيا أخو كُلَفٍ … في الخد مني إلى لذاتها صَعَر

ولا أرى أثراً للذكر في خلدي … والحبل في الحَجَر القاسي له أثر

لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي … كما يُؤَرقني للعاجل السهر

إذا لداويت قلباً قد أضر به … طول السقام وهيض العظم ينجبر

ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت … يوماً على نقصه الرَّوْحات والبُكر

والمرء يصعد ريعان الشباب به … وكل مصعدة يوماً ستنحدر

بينا يرى الغصن لدناً في أرومته … ريان صار حطاماً جوفه نخِر

كم من جموع أشت الدهر شملهم … وكل شملٍ جميع سوف ينتثِر

وكم أصيد سامي الطرف معتصب … بالتاجَ نيرانه للحرب تستعر

يظل مفترش الديباج محتَجِباً … عليه تبنى قباب الملك والحُجر

قد غادرته المنايا وهو مستلب … مجدّل تَرِبُ الخدين منعفر

أبعد آدم ترجون البقاء وهل … تبقى فروع لأصل حين ينقعر

لكم بيوت بمستن السيول وهل … يبقى على الماء بيت أُسُّه مَدر

إلى الفناء وإن طالت سلامتهم مصير كل بني أنثى - وإن كثروا

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت وفي تدبرها التِّبيان والعِبر

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل إذا انقضى سفر منها أتى سفر

لها حلاوة عيش غير دائمة وفي العواقب منها المر والصَّبِر

إذا قضت زمر آجالها نزلت على منَازلها من بعدها زمر

وليس يزجركم ما توعظون به والبَهم يزجرها الراعي فتنزجر

أصبحتم جزراً للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لكم جزر

لا تَبْطَروا واهجروا الدنيا فإن لها غباً وخيماً وكفر النعمة البطر

ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غرراً وليس من أمة إلا لها غرر

حتى تكونوا على منهاج أولكم وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا

فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفله بالموعظة والتذكير، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألهه وشاعريته التي خضع لها عمر ابن عبد العزيز مع ما عرف من تأبّيه على الشعراء وامتناعه من مقابلتهم، ولم لا يخضع له عمر وهو يفتتح شعره بسم الله والحمد لله؟ وقد وقفت على أبيات مختلفة من هذه القصيدة في مظان عديدة فلا حاجة لذكرها، وقد أتحفنا بها كاملة الحافظ بن الجوزي جزاه الله خيراً.

وأما البيت الثاني من الأبيات الأربعة التي عند البحتري فلا شك أنه من تلك القطع النونية التي أوردناها قبل وأنها جميعاً تكوِّن قصيدة من أبدع قصائد سابق.

بقي البيتان الثالث والرابع، ونحب أن نشير إلى أن معناهما هو ما تضمنه بيت مشهور من قصيدة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي وهو:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ونحبّ أن نشير كذلك إلى أن هذه القصيدة قد نسبت لصاحبنا أيضاً، كما نسبت للمتوكل الليثي، وهذا البيت بالخصوص وجد في قصيدة للأخطل. ونقل السيوطي عن تاريخ ابن عساكر أنه للطرماح، وانظر شرح شواهد المغني، وفي البداية والنهاية لابن كثير: روى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز، وعنده سابق البربري وهو ينشده شعراً فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتته المنايا بغتة بعدما هجع

فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فراراً ولا منه بقوته امتنع

فأصبح تبكيه النساء مقنعاً ... ولا يسمع الداعي وإن صوته رفَع

وقرب من لحد فصار مقيلَه ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

فلا يترك الموت الغَنِيّ لماله ... ولا معدِماً في المال ذا حاجة يدع

ولعل هذه الأبيات من قصيدة طويلة أنشد فيها الزجاج في أماليه منها هذين البيتين مع نسبتهما لسابق:

فلا تحفرن بيراً تريد أخاً بها ... فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً ... تصبه على رغم العواقب ما صنع

وهو مما يستشهد به أيضاً لجزم تصبه بدون جازم بل بما في الموصول من

معنى الشرط؛ ومما نسب له المرزباني برواية ابن عساكر:

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى ... سفاهاً وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها ... وكم من حريص أهلكته مطامعه

ونسب إليه أيضاً البيت الشهير:

وكأن ترى من صامت لك معجب

... الخ وهو لزهير كما لا يخفى.

وروى ابن عساكر أيضاً قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله وليس يزجركم ما توعظون به الخ:

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا ... جهلاً وإن نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبد الحميد قال: دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: عظني يا سابق وأوجز قال: نعم يا أمير المؤمنين وأُبْلغ إن شاء الله فقال له: هات. فأنشده:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ووافيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون شريكه ... وأرصَدْت قبل الموت ما كان أرصدا

وروي له ما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحسن منسوباً إلى سابق هذه الأبيات:

العلم والحلم خَلَّتان هما ... للخلق زين إذا هما اجتمعا
صنوان لا يستتم حسنهما ... إلا بجمع لذا وذاك معا

كم من وضيع سما به العلم والحـ ـلم فنال العلا وارتفعا

ومن رفيع البِنا أضاعهما أخمله ما أضاع فاتَّضعا

وروي مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة:

إن كنت متخذاً خليلاً فتوقَّ وانتقد الخليلا

من لم يكن لك منصفاً في الود فابغ به بديلا

وعليك نفسك فارعها واكسب لها عملاً جليلا

ومن استخف بنفسه زرعت له قالاً وقيلا

وأقل ما تجد اللئيم عليك إلا مستطيلا

والمرء إن عرف الجميل وجدته يأتي الجميلا

ولربما سئل البخيـ ـل الشيء لا يسوى فتيلا

فيقول لا أجد السبيـ ـل إليه يكره أن ينيلا

ولذاك لا جعل الإلـ ـه له إلى خير سبيلا

يا مبتني الدارِ التي هو مسرع عنها الرحيلا

إن لم تُنل خيراً أخا ك فكن له عبداً ذليلا

وتجنب الشهوات واحـ ـذر أن تكون لها قتيلا

فلرب شهوةِ ساعة قد أورثت حزناً طويلا

وأنشد له ابن عبد البر:

إذا زجرت لجوجاً زدته علقاً ولجَّت النفس منه في تماديها

فعد عليه إذا ما نفسه جمحت باللين منك فإن اللينَ يَثنيها

ويشبه أن يكون هذان البيتان من قصيدة واحدة سبق ذكر مقطعات منها على مثل الوزن والقافية. وله أيضاً مما أنشده ابن عبد البر:

مـوت التقي حيـاة لا انقـطاع لهـا   قـد مـات قـوم وهم في النـاس أحيـاء

نعم إن حياة العلماء العاملين لا انقطاع لها بالموت فذكرهم بـاق على الأيام ومنهم صاحبنا الذي مر على موته أكثر من اثني عشر قرناً وهو ما يزال يعطر المجالس بذكره وتحلى الصحف بآثاره.

وتحدث الجاحظ في البيان والتبيين عن شعر صالح بن عبد القـدوس وسابق البربري فأطراهما بما اشتمل عليه من الحكمة والأمثال التي لو تفرّقت في أشعار غيرهما لأغنتها، وهذا قوله في ذلك: «لو كان شعـر صالـح بن عبد القدوس وسابق البربري مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسر ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع».

وبعد فهذا شاعر فحل من أكبر الشعراء الذين يفخر بهم هذا المغرب العربي، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء، وقد احتج به أهل العربية وعلماء البلاغة، وقربه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، مما يعطيك أن شعره كان مرآة لسلوكه وأخلاقه، فهو قد أربى على أبي العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ، سواء من ناحية تخلقه، أو من جهة سبقه إلى جعل شعره قاصراً على هذه المواضيع، فلا نقول فيه إنه أبو العتاهية المغربي، بل نقول عن أبي العتاهية أنه سابق المشرقي.

وشعره أكثر مما ذكرنا وفي البحث المطول الذي كتبناه عنه جملة صالحة من شعره وبعض أخباره زيادة على ما تقدم فليقف عليه من أراد المزيد إذ لا تحتمل هذه الترجمة ما تفوق به نظيراتها ولا سيما بعد أن اعتمد ذلك البحث كثير من الكتاب وصار القراء يسألوننا عنه.

صدر من هذه السلسلة

- عبد العزيز الفشتالي.
- أبو القاسم الزياني.
- الوزير ابن إدريس.
- أكنسوس.
- أبو جعفر بن عطية.
- أبو العباس الجراوي.
- ميمون الخطابي.
- مالك بن المرحل.
- عبد العزيز الملزوزي.
- الأمير سليمان الموحد.
- عثمان السلالجي.
- ابن غازي.
- ابن زاكور.
- ابن الطيب العلمي.
- ابن الونان.
- ابن عبدون المكناسي.
- أبو بكر بن شبرين.
- ابن رشيد.
- أبو موسى الجزولي.
- ابن آجروم.
- أبو القاسم الشريف.
- ابن الحاج الفاسي.
- أحمد زروق.
- الشريف الإدريسي.
- ابن بطوطة.
- عبد المهيمن الحضرمي.
- أبو العباس العزفي.
- عبد الواحد المراكشي.
- ابن أبي زرْع.
- أبو حفص بن عمر.

- ابن الياسمين.
- ابن البناء العددي.
- الإمام إدريس.
- أبو عمران الفاسي.
- السلطان محمد بن عبد الله.
- الأصيلي.
- عبد الله بن ياسين.
- يوسف بن تاشفين.
- ابن حبوس الفاسي.
- ابن زنباع الطنجي.



الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٢ شارع قصر النيل - القاهرة - ج م ع
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١
برقيا . كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381 22181-21881
ATT: MR HASSN EL-ZEIN
FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٧٩٢٠٨٦ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX: DKL 23715 LE
بيروت - لبنان
FAX (9611) 351433



49

النابغة الهوزالي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

النابغة الهوزالي

نسبته ـ لقبه ـ ولايته القضاء والإفتاء ـ مكانته في العلم ـ شاعريته ـ نماذج من شعره ـ وفاته.

أبو عبد الله محمد بن علي الهَوْزالي بفتح الهاء وسكون الواو نسبة إلى جبل هوزالة بالسوس شاعر دولة المنصور الذهبي المتميز بذلك اللقب الضخم من بين سائر أدباء العصر الممتازين وصف به الفشتالي في مناهل الصفا مراراً وغيره ممن هم تبعٌ له، كما وصفه بغيره من الحلى النبيلة كالفقيه الصدر وأوحد الأدباء وعلقمة العصر وغير ذلك وحسبك بها شهادة من مثله.

وكان يعرف فوق ذلك بالنابغة لا ندري لنبوغه في الشعر بعد أن كان مفحماً شأن من أطلق عليه ذلك اللقب من شعراء العرب أم لتشبيهه بأحد النوابغ أم لمجرد المدح؟ وأشعاره المهذبة الرصينة في مدح المنصور تذكرنا بأمداح النابغة الذبياني واعتذاراته للنعمان، فلا جرم إن ملنا إلى ترجيح الرأي الوسط لا سيما مع بُعد وقوع الأمر وعدم حكاية المؤرخين له[1] واستبعاد الثالث من جهة اختصاص الشاعر بلقب مدح دون سائر المعاصرين له.

(١) وإن كان المؤرخون لم يذكروا شيئاً من أخباره.

أما لقبه الرسمي فأمره أشكل من هذا. إن قلنا إنه استحقه لسابقة خدمة وجدنا أن هناك من هو أولى منه بذلك كابن عمرو الشاوي الذي كتب للسلطان عبد الملك قبل المنصور وصحبهما في غربتهما بالجزائر قبل الولاية. وإن قلنا إنه استحقه لمكانته من نظم الشعر وقد كان منه بمكانة مكينة، أزريْنا برُصفائه شعراء المنصور ولا سيما الفشتالي الذي لا يقصر عنه. فهل يكون ذلك من المنصور اختصاصاً لابن بلده وعطفاً على نابغة صُقعِه أعني سوس الذي هو مهد الأشراف السعديين ومنه ظهرت دولتهم أم إنما هو عظمة السلطان تقتضي التكثر والتزيد من وظائف الشّرف والمشرَّفين بها فوجب أن يكون هذا شاعر الدولة وذاك كاتبها وغيرهما وزيرها وهكذا إدلالاً بوفرة الرجال والأعمال وتطاولاً بقوة الجند والسلاح؟.

ومع هذا فلم يكن ذلك فقط حظ المترجَم من المناصب الرفيعة والمراتب العالية، فقد كان يتولى الإفتاء بتارودانت عاصمة السوس حيث كان نسيبه العلامة سعيد بن علي الهوزالي يتولى القضاء. وقد أشار لذلك الفشتالي في بعض تَحْليَّاتِهِ له إذ قال في حقه: «شاعر الدولة ومفتي الحضرة المحمديَّة». كما ولي القضاء بسكتانة حسبما في الدرة لابن القاضي وحلاه به الفشتالي أيضاً لكن من غير بيان للجهة التي كان قاضياً بها.

ومقتضى هذا أنه كان على جانب من الفقه في الدين والمشاركة في العلوم الشرعية مع العلوم الأدبية التي بها اشتهاره، وهو كذلك فقد أشار ابن القاضي إلى أنه كان قرينه في الطب وأخذ معه عن أبي العباس المنجور فهرسته. وكثيراً ما يصفه الفشتالي بالحسيب والأصيل والماجد والنبيل، والأصل ينبت حوله

الغصن، كما يقول قيس بن عاصم رضي الله عنه.

كان النابغة الهوزالي شاعراً قوياً، جزل الألفاظ، بليغ المعاني، محكم السبك، متين الأسلوب ينوع الكلام في المعنى الواحد أنواعاً مختلفة من غير أن يضطر أو تضيق به العبارة ويجعل المعقول محسوساً بحسن تصويره له وتخييله للسامع حتى كأنّه يراه، وملكته في جميع ذلك حاضرة لا تتخلف، فإن ما وقفنا عليه من شعره كله بهذه المثابة حتى أننا لم نسقط منه شيئاً لعدم استحساننا له كما نفعل في شعر كثيرين غيره اللهم إلا بعض الأبيات التي شوهها التصحيف ولم نهتد إلى وجه صوابها بالكلية.

وأول ما نثبت من شعره هذه القطعة الشهيرة التي قالها في إبلال المنصور من مرضه الخوف وقد توافرت فيها جميع عناصر شاعريته الموصوفة آنفاً وهي:

تـردّىٰ أذى من سقمك الـبر والبحـر	وضجت لشكوىٰ جسمك الشمس والبدر
وبـات الهدىٰ خـوفـاً عليـك مسَهّـداً	وأصبح مذعـور الفؤاد الندىٰ الغمْـر
فـلما أعـاد الله صـحـتـك الـتي	أفـاق بها من غمـه البـدو والحضر
تـراءت لنـا الـدنيا بـزينـة وجـهها	وعـاد إلى إبّـانـه ذلـك الـبِشر
وصـار بـك الإسـلام في كـل بلدة	يهنّـا ويـدعـو أنْ يـطول لـك العمـر
وصحت لنـا الآمـال بعـد اعتـلالهـا	وعـادت إلى الأينـاع أغصـانُها الخُضر
ولا غَرْوَ أن خافت على عيْلم[1] الندىٰ	إذا اغْـبرَّ وجه الأرض واحتبس القـطر
لسيب أبي العبـاس أنضت عجـافَهـا	قـديمـاً فخـافت أن يعـاودهـا الضّر

(١) العيلم: البحر.

لئن صَدِيَتْ بيضُ المعالي لقد غَدَتْ ... نشاوى الكماة البيض واللُّدْنُ السُّمر
بقيت لهذا الدين تحمي ذماره ... ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

وقال فيه من قصيدة:

فلولا نَفَاق الدُّرِّ كانت من الحصىٰ ... كَوَاسِد هاتيك اللآلىء النَّفائسُ
تخطفها المنصور من مخلب الردى ... وللنَّقْع والبارود ليل غُدامِسُ
دعته فلبَّاها وقد حال بينها ... وقائع أضحكنَ الردىٰ وهو عابس
حروب طوت ذكر البعاث ومُلْهَم [1] ... ومات بها ذكر البسوس وداحس [2]
بها قد ودِدنا أنه مع جده ... بِصِفِّين يوم حاربته العنابس [3]
لعمرك لا أنساه يوم شهدته ... وقد سَفَرت سِنُّ الكماة المدَاعس [4]
يُرَبِّسُ [5] للأقدام كل كتيبة ... كما رَجَّس المرجان في السلك رابِسُ

ويشير بهذا إلى ما حكاه الفشتالي في مناهل الصفا عنه قال: «حدثني صاحبنا الفقيه الأديب شاعر الدولة أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي وكان ممن شهد الوقعة (وقعة أشاطين بينه وبين ابن أخيه) وحضر هولها أنه لما عظمت

---

(١) البعاث: حرب كانت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. ويوم ملهم: حرب لبني تميم وحنيفة.
(٢) البسوس وداحس: حرب قامت بين عبس وذبيان بسبب فرس لقيس بن زهير.
(٣) العنابس من قريش: أولاد أمية بن عبد شمس.
(٤) المداعسة: المطاعنة.
(٥) يربّس: يضرب.

الحيرة واشتدت الزلزلة واستفحلت المحنة بارتداد الجنود على أعقابها كافة، الأبطال وغيرهم جعل الرجل يقول لمن حوله هلم للتوديع قطعاً بحلول المنية لعدم المسلك واستداد طرق النجاة قال فاستثبتني أحد الأعيان من قبائل السوس كان بإزائي وقال لي اتَّئد واسكن ولا تنظر لأحد سوى أمير المؤمنين فإن صبَر للصدمة وثبت لزلزال الهيعة فارج النجاة وإلا كَلَّا لا وزر إلا الموت.

قال: وجعلته لذلك أنظر إلى أمير المؤمنين وهو معترض للأجناد الذين ذهبت بهم النفرة اعتراض الأسد وسيفه بيده مسلول يسوق به الناس للكرة سوقاً عنيفاً حتى تسايلوا مع المضيق إثر العدو وخلصوا إلى المتسع وحمدوا العاقبة. قال: «فلم يكن أنجى للناس من الورطة في ذلك المقام الصعب إلا أمير المؤمنين أيده الله وحده بفرط شجاعته وعظيم صبره وقوة جأشه وإلا كان آخر العهد بجميع من حشره الله في ذلك المضيق من العساكر والأجناد وسائر السواد فكان له في اقتحام أشاطيس الذي انفرد بصبره للنَّفرة الواقعة في الأجناد أثناءه الفخر الباقي مع الأيام».

ثم يقول بعد الأبيات السابقة اتصالاً:

وحسبك في وادي المخازن وقعة	بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس
بها عرفت أبناء عيص[1] بأنهم	عبيد العصامَا ناس[2] في الأرض نائس
فدانوا له حتى توقع بطشه	برمتهم صلبانها والكنائس

---

(١) أبناء عيص: الروم.
(٢) ناس: تحرك.

وضاقت بسبستيان[1] كل عويصة وذَلت لنا منه الأنوف الغطارس

يجهز ما تحوي ذخائر ملكه يذود بها عن نفسه ويداحس

ولو أيقنوا منها النجا ببناتهم لزمت لنا أبكارهم والعوانس

بيمن أبي العباس صالت سيوفنا على الشرك حتى ليس للشرك حارس

ومن جوده صلنا على الدهر بعدما له من نفوس المقترين فرائس

فكم وقعة في البذل أفنت بنانه بها المال حتى ليس في الأرض بائس

كذلك أبناء الوَصي بنانهم إذا جمست[2] أيدي السحاب براجس

فلا زالت الدنيا ببهجة نورها تمايل أغصان النقا وتمايس

وله هذه القصيدة في المنصور لما فتح بلاد توات وتيكورارين:

جرىٰ بمناك الدهر ملء عنانها وساعدت الأيام في عنفوانها

ولاحت لنا في أفق يمنك غرة بلوغ مدىٰ آمالنا في ضمانها

بشائر تأتينا ولاء كأنما لطائم[3] دارين بدت من صوانها

فتوح جنى المنصور في عرصاتها أزاهر نصر يانع من غصانها

ولا غصن إلا من قناة قويمة ولا زهر إلا من شباة سنانها

ولا روض إلا من حماة كماتها ولا سقي إلا ما جرى من طعانها

كتائب منصورية قذفت بها موام نأت عن أرضها ومكانها

---

(١) هو سبستيان ملك البرتغال الذي قتل في هذه الواقعة.

(٢) جمست: جمدت.

(٣) لطائم دارين: اللطيمة المسك. ودارين موضع بالبحرين منه المسك الداري.

تهيم بها الأرواح حتى تخالها … تناغي عزيف الجن في دورانها

طويت بساط أرضها بقنابل … سنابكها أطوى لها من بنانها

سحائب من مراكش قد أثارها … صبا النصر يحدوها حداً عكنانها(١)

يؤم بها الصحراء يرتاد أمة … سدًى أنفت آنافها من عرانها(٢)

فكم ملك قد رامها فتصحبت … عليه ومحت في محون حرانها

فلما همت تلك السحائب فوقها … أفاقت وهبت من كرى هيمانها

فألقت مقاليد الأمور إلى الذي … نضا العز عنها فارتدت بهوانها

إلى الملك الشهم الذي لقحت به … لقاح الحروب بكرها وعوانها

إلى ابن البتول المجتبى من نجارها … وفرع العلا المعتام من خيرانها

إلى ابن الهدىٰ غمر الندى قاصم العدى … وفخر بني ابن المصطفى وهجانها

بني الحسن السبط الزكي الذي خبت … به فتن الإسلام في هيجانها

وفاءت إلى الألف القلوب التي غدت … بمستعر الأضغان في غليانها

هديت أبا العباس فينا كهديه … فكم ليلة كشَّفتَ ليْل عنانها

وأطفيتها بالسيف لا السلم بعدما … تصدع شمل الدين من شنآنها

فلا زالت الأقطار تعطي مقادها … لسيفك من سوس إلى خرسانها

إليك أمير المؤمنين قلادة … يروق بأفق الملك زهر جمانها

مفصلة أقطارها بيواقت … نحور المعالي تزدهي بازديانها

---

(١) العنكان: مسكنا ويحرك: الإبل الكثيرة.

(٢) العران: عود يجعل في أنف البعير.

فرائد من أوصافك الغر صغتها … لتنشر في الآفاق فضل زمانها

وله فيه عند فتح السودان:

ألمت وقد ألوىٰ على وصلها الهجر … كما افتر اثر الليل عن ثغره الفجر

وجلىٰ وقد لاحت دجىٰ الليل وجهها … كما نضَّ سَجف الليل عن وجهه البدر

تُساقط لي دراً لقطت فريده … بأنمل سمْح فيه عن غيره وقر

تحدث عن مسرىٰ سوار ذمت بها … مرام تضل النهج في فيحها الزهر

تحامىٰ هواها الطير من خشية الردىٰ … قديماً وأعيىٰ الريح مسلكها الوعر

وجشمها المنصور خرس كتائب … تحمَّل ما يردىٰ فيحمله الصبر

تقاد نواصيها بكل متوَّج … نمته إلى عدنان آباؤه الغر

على كل محبوك السراة إذا جرىٰ … مع الريح فات الريح من عدوه حضر

صوافن ينموها وجيه[1] ولاحق … مطهمة دهم ومقْوَرَّة[2] شُقْر

بمرهفة مأثورة مشرفية … تؤم غِراريها ردينية سمر

غَدَت تحمل الموت الزؤام يحوطها … ويكنفها يمن يشيعه نصر

فحلت بأرض السود لم يثن عزمها … مهالك صدعن مسالكها الذعر

ورامت بنو حام[3] لِجهل بقدرها … دفاعاً فباتت فوق آنافها العفر

هَمَىٰ فوقها وطف المنايا بحاصب … ظوامي عبال النبل من فيضه جمر

---

(١) وجيه ولاحق: فرسان عربيان مشهوران.

(٢) مقورَّة شقر: ضوامر.

(٣) بنو حام: حام بن نوح أبو السودان.

لقد ذكر الحبشان من وقعها بِهِمْ ... وقيعة يوم الفيل لو ينفع الذكر
هنيئاً أمير المؤمنين فقد قضىٰ ... على كل من ناواك أسيافك البُتْر
لئن أسلمت أرض الجنوب مقادها ... فعن كثب تلقي مقاليدها مصر
وتزورُّ زَوْراء العراق فتهتدي ... إليكم وأعناق العِدا خُضَّع صُغر
وتخفق بالواد المقدس راية ... عليك وتهوي فيه ألوية حُمر
فدم لفتوح يستحث لنيلها ... إلى كل قطر منك ذو لَجَبٍ[1] فَجْر

وله فيه حين ظفره بابن أخيه الناصر الثائر عليه وكان ذلك على يد ابنه وولي عهده المأمون:

هو النصر يجنىٰ من ذوابل مُرّانِ ... خياشمها يرعفن بالعلق القاني
وبيض صفاح بُتَّرٌ يمنية ... ومُقَوَّرَة شُقر سَوَاهِمُ غُرَّانِ
تليهنّ من شُعْثِ الذوائب فتية ... نماهم إلى العليا معدُّ بن عدنان
تسامت بهم غلي المدا وتوقَّلُوا ... ذُرى النسب الوضاح من قيس عيلان
أهاب بهم والجو بالنفح حالك ... يغطي دياجي ليله شهب حران
أغَرُّ رحيب الباع من سرِّ هاشم ... سليل الملوك الصِّيد من آل زيدان
مُرَوِّي صوادي السّمر من ثُغُر العِدا ... ومطعم سِيدَانَ الفَلا هام أقران
حمىٰ بيضة الملك الأغرِّ وقد غدا ... من الدم عُرْيانُ الظُّبَى غيرَ عُرْيَان
خطى فوق أشباح المنايا ولم يُبَلْ ... وللطعن في اللبات إرْزَامُ إرْنَانِ[2]

(١) اللجب: ارتفاع أصوات الأبطال.
(٢) أرزم الرعد: اشتد صوته.

لقد جرد المنصور منه مهنَّداً فرى كل ليث من عناد وعدوان
وهدَّ بِهِ هُضباً رَواسيَ شُمَّخاً تكاد بها الدنيا تميد بأركان
عَشِيَّتَ ساحَت بالأحاليف للوغى مهامه عادت بالقَنا غابَ غيطان
ولاحت عليهم كل زُغْفٍ كأنَّما أفيضت على أبدانهم زُرْقُ غدران
تلاقَوْا دُوَيْنَ الوَرْدِ كلّ مدجج يهز إليهم كل أسمر ظمآن
وبارقةٍ للموت تحت سحابها صواعق تتلوها مَوَارِجُ نيران
يقيم لها الألافُ بَرْقاً فأمطرت عليهم بشؤبوب من الموت هَتَّانِ
وكانوا يساقون المنايا وأجفلوا لِوَقْعِ الرُّدَيْنِيَّاتِ إجْفَالَ ظِلْمَانِ
توخى بها المأمون كل مُصمِّمٍ وَلَدْنٍ أصمٍّ جُرِّبَا منذ أزمان
رأوا ضيغماً يقتاد من كل باسل مشوق إلى الهيجاء آسَدَ خَفَّانِ
وجُوذِبَ أذْيَالَ العلا فَتَهَيَّجَتْ حفيظة وَرَّادِ المهالك غَيْرَانِ
تَصَلَّى بجمر الحرب حتى كأنما لَهُ بمناخ الموت مألوف أوطان
ألا أيها المنصور بالله أذْعَنَتْ لسيفك أعناق العِدَا أيَّ إذعان
كفتك ظُبى المأمون كل ملمَّة ومبهم خطبٍ مُسْدِلاً ذَيْلَ إجنان
فلا زال ملثوماً ثرى عرصاتكم لأفواه أملاك مُعَفَّرِ تِيجان

ومما قاله بمناسبة المولد النبوي بين يديْ المنصور وكان عظيم الاحتفال به:

يا حبذا ريح أتاك نسيمها ولديه من أخبارهم مكتومها

(١) كذا.

ودعـــاه مـــن سَـلْعٍ بُـرَيـق لامـع ... فـانصب من نـثر الـدمـوع نـظيمهـا
فــاحت بـه نفحــات رملةِ عـالـجٍ ... بشَــذا عُــرَيْب بـاللِّوى تخيـيمـهــا
يـنبيــك عن مسراه فـجــر بــاسـم ... بحــديث أشــواق شــواك أليمـهــا
يـا سـاكنـاً سَلْعَـاتِ جـرعـاءِ الحمى ... فَــرُبى العُــذَيْب ظعينهــا ومقيمهــا
هــل لي إلى تـلـك المـعــالم عــودة ... تشفي شجـونـا في حَشَـايَ سَمُـومهـا
بــأبي عشيــات هنــالــك تــزدهي ... حسنــاً ويعبق نشرهــا وشمـيمـهــا
بـيــوانــع عــينٍ سقــامٌ جـفــونها ... سُقْمَ الجــوانــح لا يُبِـلُّ سقيمـهــا
غيــدٍ تشبُّ عـلى القلوب غــرامهــا ... حتى يــذوب غشـاؤهــا وضميمهــا
مـن لي بمن حـل الـعــذيـب ودونــه ... أعــلام نجـد سهلهــا وحــزومهــا
ومـهــامــه لــو كُلِّفَتْ بسـلوكـهــا ... ريــح لكــلَّ بليـلهــا وسَمــومـهــا
هــل من خـوانِقَ مهــريــات|صُلَّب ... أخـفــافـهــا ولحــومـهــا وأديمـهــا
وقفٍ عــلى أسرى السُّرى إرقــالهــا ... ودمـيلهــا وعـنيـقهــا ورسـيـمـهــا
تُخْـدِي بنـا في كـل مـرتٍ صحصـح ... والآل يخـفضـهــا بــه ويـقـيـمـهــا
تسمُ المزورات المجـاهـل فـاغتـدت ... بــزلالهــا آكــامــهـن وكــومــهــا
حتى تشق الــدرب فـوق ظهــورهـا ... ويسيـل في بـطن المسيــل سَعُـومُهــا
وتنيــخ بــالبــطحــا فيـحــطم كلها ... حـطمت عليهن النفـوس حـطيمهـا
وأصُبُّ في تـلك الجـمار مــدامعــاً ... تـطفي لـظى جَحْم الفؤاد جحيمهــا
وتعــرفت عَــرفــاتهــا وحــرؤهــا ... شـوقي وزمـزم والصفــا ورسـومهــا
وأميط عنــد المشعــريـن كليـهــا ... شعــري وميط عن القلوب همـومهــا

فأكون ممن قد أجاب ولم يني[1] ... لما دعا للبيت إبراهيمها

وأرى بروقاً موشيات مَوْهناً ... من نحو طَيّةٍ لا أزال أشيمها

لاحت فَزُمَّتْ للرحيل رواحل ... يحكي وَشِيكَ وَمِيضهنَّ طَهِيمُها

حتى وَرَدْنَ بنا العقيقِ فراقها ... بتلاعِ هاتيك الرُّبَى تنويمَها

وتنسمت نفحات تُرْبَةٍ من به ... طابت أباطح طابة ونسيمها

وتلألأت أنواره فسمت لنا ... غُرَرٌ طوت حُجُبَ الضلال نجومها

قِبَبٌ حَوَتْ سر الوجود ومن بِه ... وجدت فراديس العلا ونعيمها

من تنجلي يوم الجزاء بجاهه ... عن أوجه الرسل الكرام غمومها

فخليلها أنحىٰ لأحمد قومه ... يبغي الجوار وروحها وكليمها

من أفصح الحجر الأصم بصدقه ... وأجابه ذِيبُ الفلاة وريحها

وسقى وأطعمها كتائب جيشه ... صاعاً فَأُشْبِعَ هِيمها ونهيمها

والبدر منشق لبعثته كما ... خَمَدَتْ لفارِسَ نارُها وضريمها

قسماً بساطع نوره أن حُمَّ لي ... زَوْرٌ لتربته الكريمة خِيمها

لأعَفِّرَنَّ جبين وجهي لاثماً ... لثرىٰ رسُوم لا يُحَلُّ لثومها

لمعالم جاشت خلال ديارها ... آي ملائكة السماء تُسِيمُها

آيات وحي أحكمت وأتى بها ... مثوى الأمانة روحها وحميمها

لا زال روح الله يعبق عرفه ... بحمَى مدينته المنيع حريمها

وصلاته أبداً يُضاعِفُها له ... حتى القيامة لا يزال يديمها

---

(١) كذا ولعلها وما يَني.

وأدام تـأيـيـداً لـوارث مجـده ... أسنى الخلائِفِ فخرِها وعظيمها

(مـلك) نَمَـتْـهُ دوحـة نـبـويـة ... وسمت بـه أقيـالهـا وقُـرُومُها

قـدسيـة أحسـابهـا وبهـاؤهـا ... بَـدْرِيَّـةٌ أنـسـابهـا وأُرومـهـا

سـهـليـة رحـبيـة أخـلاقـهـا ... جِـبِـلِّيَّـة آنـاتهـا وحـلومـهـا

فِـهْـرِيَّـة قُـصَـوِيَّـةٌ مُـرِّيَّـةٌ ... أسنى منـاسـب خِنْـدِقٍ وحميمـهـا

أقـمار مجـد في مـطالـع سـؤددٍ ... كشفت بهِمْ بُهْمُ الخـطوب وشيمهـا

أعـلام فخـر سـوّدت هضبـاتهـا ... علمـا نِـزَارٍ قيسـهـا وتميـمـهـا

لم تـأب سـؤدَدَهُـم أُبَـاة ربـيعـة ... بكـر وتغلب ذُهْلُهـا وجُشـومهـا

فمِن يمن ابن قحـطان عشت أذواؤهـا ... أضـواء خنـدف فـاستنار بهيمهـا

نـسـب تهـز بـه قصي عـطفـهـا ... تِيهـاً وهـاشمهـا كـذا مخـزومهـا

وتـفـرَّع الـنـور المبـين محـمـد ... من هـاشم أَرِجُ الأصـول كـريمهـا

ونمـى لهـا المنصـور فهـو سليلُه ... وإمـام أمتـه فـنعـم مُسيمُـهـا

وأتى بـه المـهـديُّ فـارع نـبـعـة ... ينبـوع عـذب المكـرمات نـديمهـا

تـتـفـيَّـأ الأنـسام وَارِفَ ظِلِّـهـا ... وتـفيض منهم بـالمـواهـب ديمهـا

وافى أبـو العبـاس فـانتشرت بـه ... أغـصـانها وظـلالهـا وغيـومـهـا

حـتى أعـاد لنـا خـلافـة هـاشم ... مـوطُـودَةٌ أكنـافهـا ورسـومـهـا

مخضرة عـرصـاتهـا قـد فَـوَّفَـتْ ... تَـلَعَ المنى صمعـاؤهـا وجميعهـا

لا زال منـه لـلبريـة سـائس ... يقـظان في مهـد الأمـان ينيمهـا

وغـدت معـاصيم المـواسم تـزدهي ... بـحـلى محـاسنـه ودام يقيـمـهـا

ومن ذلك أيضاً هذه القصيدة البليغة:

سقى منحنى الوعساء من رَامَةٍ قَطْرُ ... وحيّت معاهِدَ اللِّوى الدِّيَم الغُرّ
وجادت ذرى تَيْماء وانهلَّ فوقها ... نطاق الغوادي وهي هامية غُزْر
وهز عليها البرق كلَّ مصمم ... يُوفِّي به في المَحْلِ للدِّيم النَّذر
فرعياً لها من أربُعٍ هاج ذكرها ... بلابل صبٍّ عِيلَ من وجده صبر
إذا اعتاده ذكر العقيق وعالِجٍ ... وسَلْعٍ جرى من كل طرفٍ له نهر
ألا هَلْ لمكلوم الجوانح وقفة ... دُوَيْنَ النقا حيث الأُكَيْثِبَةُ العُفر
تعلله أنفاس نجدٍ سَرى بها ... نسيم صبا باتت يغار لها الزهر
وركب على الأكوار نشوى من الكرى ... ترامت بهم بِيدٌ صحاصحة قفر
تشق بهم أغفالُها أرْحَبِيَّةٌ ... يناغي بُغَامَ الظَّبْي في فيحها هدر
إذا غرَّد الحادي طَرِبْنَ كأنما ... تَلَجْلَجَ منها في ضمير الدجى سِرّ
فيا لَكِ من هُوجٍ ويا ليت فوقها ... مُعَنًّى يداني خطوَه الأشم والوزر
يزور النبي المصطفى ويزيره ... تِلاءً[1] كما يهدي نسيماته الشحر
رسول تجلت من أسرة وجهه ... سواطع أنوار بها كمل البدر
وفاضت على الدنيا بجود بنانه ... بحار بها أودى على العُسْرِ اليُسْرُ
به أنعش الله البرية بعدما ... أحطّ عليها بَرْكَهُ الحادث النكر
إليه الْتجى الرسل الكرام وقد دجت ... كروب فجلَّى من ميامنه الفجر
هو الذُّخر لا يُرجى سواه وسيلة ... إذا لم يكن يوم الجزا غيره ذخر

(١) التلاء: الذمة والجوار.

هو الموئِل الأحْمَى الذي يحتمي به ... وقد وضع الميزان وانتشر الحشر

هو العروة الوثقى التي استمسكت بها ... يدا كل من ينجو وقد نصب الجسر

شمائل أحلى من حياة معادةٍ ... وأذكى من الزهر الذي فَتَّقَ القطر

أتى بالهدى يدعو إليه ولم يزل ... ينادي وفي الآذان عن رشدها وقر

فلما الْتَوَتْ عليا لؤيّ ولم يقم ... بها أوداً إلا المقومة السمر

نأته عن آلبَطْحا لؤيُّ بن غالب ... وأحشاؤهم تغلي وأعينهم خزر

فيمَّمَ مثوى العزّ طيبته التي ... أبى الله إلا أن يكون بها النصر

فَآوَتْهُ إيماناً به وتبوَّأت ... له الدار والأعداء أعناقهم صغر

حمته سراة الأزد آساد قَيْلة ... لها البيض أنياب وسمر القنا ظفر

فألقت إليه الحُمْس في عقر دارها ... مقاليد واستدنى معاطِسَها القسر

وذاق الردى أبطال فِهرٍ وأدركت ... أبا جهلها البيض المدرَّبة البتر

وأودى بعتبة الظُّبا فتقطَّرت ... بنار الأسى هند وذاب لها صخر

فليت قريش العز ألقَتْ مقادها ... إليه ولم يَجْمَح بها الخلق الوعر

ويا ليتهم لم يؤثروا حقد ضيغم ... ولم تشمت الأعداء في حِلْمها فِهر

فلو تبعوه لم تصب سرواتهم ... ولا أنهكت منهم حُنَينٌ ولا بدر

همو قطعوا أرحامهم وتحزبوا ... وحاد بهم عن رشدهم عمر والغُمر

همو هجروا الحق المبين وأعرضوا ... عناداً وآي الصدق واضحة غرّ

دعا البدرَ فانشق انشقاقاً وسَبَّحَت ... براحته صمّ الحصى وانجلى الأمر

كما قد أتت تهتز شماء أيْكة ... إليه ولم يُخجل أفانينها عثر

كما أفحم اللُّسْنَ المصَاقِع منهم ... بآي تحامى شأوها النثر والشعر
عليه سلام الله ما آلم الحشا ... إليه حنين النيبِ آثرَها الزجر
وما أومضت بالغَوْر للركب موهناً ... بروق تلظّى في الضلوع لها جمر
وما سَحَبَتْ ذيل الحيا نسمة الصبا ... على الروض فانْفَتَّتْ على زهره الدُّر
لِمجدك يا شمس المعالي رفعتها ... فلا انثنى عن فضلكم ويدي صفْرُ
إذا ازْدَلَفَ الراجون منكم بصالح ... فإنما تأتي عندك الحمد والشكر
ولا بَرِح اليوم الذي طلعت به ... علينا علاكم يَزدهي عِطْفُه الكبر
ودامت بأجياد المواسم زينة ... على سبطك المنصور ما بقي الدهر
إمام الهدى حاز المعالي وراثه ... ووجه الضحى من عابِر الدم محمر
رأى دونها بحر الردى فأجازه ... به سابح لكن بساحته الحذر
أهابت به فاهتاج عزاً وغيرة ... عليها حفاظ من خلائقه مر
جدير بأن مَتَّتْ بحبل ذمامها ... إليه فلم يَطْرُق عُرى عهدها خَفْر
نهوض بأعباء العلى غير كارث ... بأنحاء دَهر أوسطا حادث يَعْرُو
برأي يرى في مبهم الخَطْب منهجاً ... وقد ضاق في حافاته المسلك الوعر
وأنصار حزب قد تخطّتْ إلى الوغى ... بهم ضُمَّرٌ دُهْم وسابِحة شُقْر
وجودٌ إذا ضَنَّ الغمام تَبَجَّسَتْ ... به كفّه وانهلَّ نائله الغمر
إلى شيم مهديَّة فاطمية ... يهز بها عِطْفَيْهِ شَيْبَةُ أو عمرو
ومجدٌ بناه الأنبياء مؤثّل ... له الزُّهر أتراب وشمس الضحى ظِئْرُ
مساع لها فوق السماك مُعَرَّسٌ ... لبدر الدجى تلقاءه النظر الشَّزْر

عُـلاً تـنـتـمـي أعـراقـهـا أوَّلـيَّـةٌ تـفـرَّقَ في خـير الأنـام لهـا نـجـر
يجـريهـا ذيـل الـفـخـار غـطـارف نمـاهم إلى العليـا كنـانـة والـنضر
لهم في ذرى البـطـحـاء دار عـتيقـة يـروح إليهـا خـابط الليـل معـتر
وتُلْقَى جفـا فيـهـا جفـان مـليئـة سَـدِيفـاً ومـولى كـلِّ طـائفـة جـزر
ومـلبـونـة مـربـوطـة بـإزائهـا قبـاب تُعَـاليهنَّ مـركـوزة سمـر
إذا دعيت للحرب طارت إلى الـوغى وفي كـل وكـن ( ) صُـغْـر
وتـلمـع في أيْمَـانهم يَـزَمِـيَّـة بهن عمـود من جميع ( ) سمـر
وتـطفـو عـليـهـم أذْرُعُ تُـبَّـعِـيَّـةٌ كما فُضِّضَتْ من فوق أصلالها الغـدر
لكم يـا بني خـير الـورى كـل بـاذخ من العـزِّ أعيـا العـالمـين ولا فخـر
منـاقب يـرويهـا المعـرَّف والصفـا وزمـزم والبيـت المعـظم والحـجـر
أيـا خـير من تفـتر عن مكـرمـاتـه إذا شقشق النـادي الأحاديث والـذكر
تجـاوزتُ طرق المـادحـين من الـورى وفي العجز عن إدراك أوصافـك العُذر
ليهنـك مـا تثـني بـه السـور الـتي تُـرتّـل فيكـم أيّهـا البـدو والحضر

ويلاحظ أننا ذكرنا كثيراً من نماذج شعره وذلك لسببين اثنين:

الأول: أننا أردنا أن نعوض بذلك ما فاتنا من معلومات عن حياته وما جريات ترجمته إذ من المؤسف جداً أن يكون شخص مثل هذا غيرَ معروف الترجمة ومجهول تفاصيل حياته فيما وقفنا عليه من كتب التراجم ومظان التعريف به سواء لدى علماء إقليمه أو الأقاليم الأخرى.

والثاني: أن نعطي للقراء والمهتمين بالأدب العربي بالمغرب مثالاً للشعر

الجزل القوي النّسج المتين اللغة الذي لا نشك في أن صاحبه كان يستحضر القاموس المحيط أو الصَّحاح من كتب اللغة كما نعرف عن كثير من علماء إقليمه سوس، وهو الإقليم الأعجمي اللسان والمنفرد بلهجة قومية خاصة غير عَربية بالطبع.

فإذا كان يعطينا هذا المثل عن علماء بلده سوس فإن نظيره وهو أبو العباس الجزنائي - من إقليم الريف غير العربي - يعطينا مثالاً آخر في متانة الأيْسر من شعره وجزالة اللفظ شعراً ونثراً كما رأينا في ترجمته من هذه السلسلة، فهما معاً من أعاجيب الأعاجم أو العرب المستعجمين وبهما نُعَبِّر في وجه الأجانب الذين يعتبرون المغرب قطراً غير عربي، ويغتر بكلامهم قليلو المعرفة وناقصو الاطلاع من أبنائنا وبعض باحثينا.

توفي النابغة الهوزالي رحمه الله بمراكش في شعبان سنة ١٠١٢ هـ.



الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري ـ مقابل فندق بريستول
ت ٨٦٠٧٩٢١ ـ ٨٦١٥٦٣ ـ ص ب ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبنان»
TELEX : DKL 23715 LE
بيروت ـ لبنان FAX (9611) 351433

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل ـ القاهرة ـ ج م ع
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ ـ ص ب ١٥٦ ـ الرمز البريدي ١١٥١١
برقياً: كتامصر ـ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
TELEX No : 23081 23381-22181-21881
ATT. MR.HASSN EL ZEIN
FAX · (202) : 3924657



50

أبو الحسن المسفر

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت



أبو الحسن المسفر

اسمه ونسبه ـ بدايته المجهولة ـ قول ابن العربي الحاتمي فيه ـ مناقشة هذا الكلام للعياشي ـ إطباق المترجمين على عدم ذكر كتاب منهاج العابدين في مؤلفات الغزالي ـ قولهم في كتابي النفخ والتسوية والمضنون الكبير المنسوبين أيضاً للغزالي ـ قصيدته النونية في الموت وما بعده.

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن بن خليل المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تسفير الكتب، وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضاً في كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي: أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال أنشدني أبو الحسن علي المسفر بسبتة لنفسه:

يا أيها المبتلي بذمي ... قد علم الله ما تقول
فالقول إن خف في لساني ... أخافني وزنه الثقيل
وحافظ كاتب شهيد ... يكتب عني الذي أقول
من حاسب النفس كل حين ... لم يتهاون بما يقول

ثم قال بإثر ذلك: «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيماً عارفاً

غامضاً في الناس مخمول الذكر، رأيته بسبتة ؛ له تصانيف منها منهاج العابدين يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضاً، وتسميه الناس المضنون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة وهي هذه:

قل[1] لإخوان رأوني ميِّتاً	فبكوني وَرَثَوْني حزنا
أتظنون بأني ميتكم	لست ذاك الميت واللهِ أنا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عنها فيما بعد.

هذا جملة ما ورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر مهم يدعو إلى إطالة التفكير في هذه الشخصية الغامضة التي كاد الإهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الإشارة العابرة من الشيخ محيى الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوية ثقة لا يتطرق إليه الشك ألا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبد الجليل أي بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبتة؟ وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه، فإذا قال عن منهاج العابدين إنه يعزى لأبي حامد وليس له وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها فإنه يعرف ما يقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب النفخ والتسوية والقصيدة النونية التي نسبت أيضاً إلى الغزالي، وليس هذا فقط فإنا نجد في هذه الفذلكة من كلام الشيخ الأكبر جواباً عن تساؤل طالما ردده الباحثون في آثار الإمام الغزالي، وحلاً لمشكل يتعلق بفلسفة هذا المفكر العظيم.

ذلك أن كتاب منهاج العابدين لم يذكره ابن السبكي في جملة مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في طبقات الشافعية، وقد لاحظ ذلك السيد مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء وأشار إلى مقالة ابن عربي هذه. وقد يعني ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه‌الصفة، وذلك مما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا ثم عقب عليه بما يلي:

«قلت: قد اشتهر واستفاض نسبة منهاج العابدين للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أعجب من كونه ليس جارياً على مذهبه، ولا هو مطابق لنَفَسه، وكنت أبحث كثيراً عن المشائخ الذين ينقل عنهم فيه حيث يقول: قال شيخنا أبو محمد: قال شيخنا أبو عمرو: ليس ذلك دأْبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لا أشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك. وللإشارة فيه إلى إحياء علوم الدين ولنقله فيه عن إمام الحرمين سماعاً، فلما رأيت كلام الشيخ محيـي الدين المتقدم تيقنت أنه ليس له، لعدالة الشيخ محيـي الدين وسعة علمه واطلاعه لا سيما وقد ذكر أنه يُعزى لأبي حامد فيما نفاه عنه مع علمه بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه فإنه لسان وقته بلاغة وتحريراً.

وذو الذوق السليم يميز الكلامين، ويشهد لذلك أيضاً أن من عـرف بالإمام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تآليفه والله أعلم.

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل ما بقي من احتمال

صحة نسبة الكتاب المذكور إلى الإمام الغزالي وهو عند التحليل يـرجع إلى العناصر التالية:

١ ـ أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جارياً على مذهبه ولا مطابقاً لنَفَسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلامة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب الأخلاق عند الغزالي: «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب، وقد رأيتَ كيف اعتلَّت صحته بسبب العزلة. ونقل الزَّبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل ما زُوِّر باسم الغزالي من التأليف».

٢ ـ الأشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب الإحياء الذي وقعت الإشارة إليه فيه على أنه للمؤلف فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشائخ لا ذكر لهم عند الغزالي.

٣ ـ عدالة الشيخ محيى الدين الذي نسب الكتاب لصـاحبه الحقيقي مـع معرفته لعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أربـاب هذا الشأن فلا يخفى عليه ما هو من كلام الغزالي وما هو من كلام غيره.

٤ ـ عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين وقد أشار الزَّبيدي إلى هذا الوجه فيما ألمعنا إليه سابقاً.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي

لم يقتنع به فكتب عليه في (نور البصر) بعد نقله له ما نصه: «قلت: ورأيت مكتوباً على نسخة منهاج العابدين منقولاً من خط الإمام القصار أنه للغزالي وأنه آخر ما ألفه. وأنه أنفع كتبه فيما أظن، وما ذكره ابن العربي إن صح فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم، وأما منهاج العابدين المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه هو مؤلف الإحياء، ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ما عند الحاتمي نظر والله أعلم».

والعجب من الهلالي إذ يقول: «وما ذكره ابن العربي (إن صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته لمن هو له حقيقة. ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ما علم من عدالته وتثبته وكونه معاصراً لصاحبنا أبي الحسن المسفر، ويتمسك بما وُجِد منقولاً من خط الإمام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولا يخلو أن يكون ذلك مجاراة للاعتقاد الشائع الذي لم يخف على أبي سالم. وأما ما جاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب الإحياء فقد عرفه الجميع وهو ما حفَزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر ما نسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولا تتمثل فيها روحه. فلا شك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خانَهُ تحقيقُه.

هذا ما يتعلق بكتاب منهاج العابدين وأما كتاب النفخ والتسوية المعروف بالمضنون الصغير فإنه أيضاً لم يذكره ابن السبكي في تَعْداد مؤلفات الغزالي وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضمون الكبير عرَضاً أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتُقِد عليه وهذا نصه في ذلك: «وذكر ابن الصلاح أن

كتاب المضنون المنسوب إليه معاذَ الله أن يكون له وبيِّنَ سبب كـونه مختلفـاً موضوعاً عليه. والأمر كما قال. وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفْي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات وكل واحدة من هذه يُكفِّرُ الغزالي قائلها هو وأهلُ السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها؟».

فإذا كان ابن عربي إنما نفَى عن الغزالي المضنون الصغير وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لا يتعرض للمضنون الصغير بنفي ولا إثبات وينفي المضنون الكبير قطعاً عن الغزالي.

وربما يقول القارىء إن كلامه ليس نصا في أحد المضنونين فبماذا حملتموه على الكبير؟ قلنا إن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث وإلا فالكبير اسمه المضنون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسـوية. وأظن أن الناس أطلقوا عليه اسم المضنون الصغير من أجل تشابهه موضوعاً في الجملة مع المضنون به على غير أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزَّبيدي قد فصَّل الكلام عنهما تفصيلاً مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح مُوجَّه يقيناً للمضنون الكبير، فقد قال في التنبيه على ما عُزِي لأبي حامد من كتب ليست له: «ومنها كتاب النفخ والتسوية فإنه كـذلك مـوضوع عليـه، ومنها المضنون به على غير أهله قال ابن السبكي ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه وقال: معاذ الله أن يكون له» إلى آخر ما سبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثـره: (وهو عنـدي، وفي المسامـرة ـ يعني محاضرة الأبـرار ومسامرة الأخيار لابن عربي ـ أنه من تأليف علي بن خليل السبتي وكـذلك صرح صاحب تحفة الأرشاد بأنه موضوع عليه وقد صنف أبو بكر محمد بن

عبد الله المالِقي كتابا في رده وتوفي سنة ٧٥٠).

وقد عاد الزَّبِيدي فخلط في هذا الكلام بين المضنونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير. وعلى كل فقد أفاد هذا الكلام أن كليهما موضوع على الغزالي وليس من تأليفه، وأن أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصَّلاح إلى أبي بكر المالِقي الذي ألف كتاباً خاصاً في رده وقفتُ على تسميته عند النُّباهي في المَرْقَبة العليا بكتاب السجوم الواكفة والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة.

ولنا في سبب عزو كتاب النفخ والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضنون الصغير رأي لا يبعد أن يكون صواباً وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي ولذلك يسمى أيضاً كتاب الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويجه ولضمان إقبال الناس عليه وهكذا جاء في أوله:

«سئل الشيخ الإمام الأجل الزاهد السيد حجة الإسلام زين الدين مُقتدَى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه عن معنى قوله تعالى: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، ما التسوية وما النفخ وما الروح فقال...» إلى آخره. فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من إملاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المُسفِّر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضمون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال ما

بعد الموت مع كبر حجم هذا وتعرضه لمسائل لم يتعرض لها كتاب النفخ والتسوية. كل ذلك مما أعطاه اسم المضنون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضنون إلى الغزالي أنه يقوم بِقِدَم العالَم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفْيِ الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عُرِف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه كما يعلم من كتابه تهافت الفلاسفة وغيره، فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مُزِيحاً لهذه العلة مُزِيلاً لهذه الشُّبهة حيث بين أن الكتاب المذكور ليس له، وإنما هو لصاحبنا المُسفِّر كما جاء كلامه المشار إليه جواباً عن سؤال المشتَبِهين في نسبة كتاب منهاج العابدين للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالَفاً لطريقته ولا يشبه نَفَسه.

فإن قيل إن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضنون الصغير، والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضنون الكبير، قلنا هذه مسألة أخرى تثير إشكالاً جديداً وهو أن كلاً من المضنونين اللذين بيدنا لا يوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح، عدا ما يوهمه كلامه في المضنون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم. وكذلك بعض فقرات من المضنون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جُرِّدت منه.

وثم في المضنون الصغير في الفصل المذكور عبارة تزري بالأشعرية والمعتزلة، وهذا بالنسبة إلى نفي الكتاب عن الغزالي مهم جداً لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لا يتوكأ على أصحابه بهذه الصورة.

ونظر أخيراً في قصيدة صاحبنا النونية التي قال عنها ابن عربي إنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نُسِبت أيضاً إلى الغزالي وقيل إنها وجدت بعد موته تحت وسادته فأما نسبتها إليه فتُستفاد من شرح الإحياء للزَّبيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الإشارة إليه على الكتب التي عُزِيت للغزالي ما نصه: (ومنها كتاب تحسين الظنون) وله فيها:

لا تــظنُّــوا المــوتَ مــوتــاً إنــه	لَحــيــاةٌ وهــي غــايــات المُــنَى
أحـسِـنُـوا الـظن بـرب راحـم	تشكـروا السعـي وتـأتـوا أمَنـا
مــا أرى نــفسي إلا أنــتُــمُ	واعـتـقـادي أنـكـم أنـتـمْ أنـا

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصددها، فهذا ما يدل على نَحْلِها للغزالي. وأما أنها وُجِدت بعد موته تحت وسَادته فإنا رأينا ذلك مكتوباً على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جَزَم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول إنها تُنسَب للغزالي كما قال في الكتابين السابقين من تأليفه فلم يبق شك في أنها للشيخ المُسفِّر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع. وحقها أن تُقْرَن بِعَيْنية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كُلًّا منهما تناول مطلباً مهماً من مطالب الفلسفة وصاغه صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة وحلّق في سماء العقل يرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخاذة أو يَضِيع لحنهُ الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت وما بعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحرراً من قيد السجن

وانطلاقا نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ما كانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها وتنعم أبداً في عالم قُدسي يُكشَف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتَعُود سِيرتَها الأولى من الفِطرة التي فطر الله عليها الناس. ويُتَلَمَّحُ من القصيدة القولُ بوحدة الوجود وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره، وفي النص الذي أثبته الزَّبيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله رأيته بسبتة زيادة جملة لا توجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثاتِهما كانت في هذه المطالب وما شابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنفوان الشباب في سن الثلاثين فما إليها لأنه ولد سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها قَبْل سنة ٥٩٨ وفي أثناء ذلك كان يقيم بإشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبتة وفاس على بعض علمائها.

أما صاحبُنا فالغالب أنه كان في نِهاية عمره ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض شيوخه فهو وإن لَقِيه يُعدُّ في رتبة مشيخة شيوخه، وبذلك نظن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نقدم نص القصيدة كاملاً على ما حققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالمخطوطة التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي بعض الألفاظ وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي: الثاني، والسادس، والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون بترتيبها الذي اتبعناه لا ترجيحاً له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد

فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معاً بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المُسفِّر جملةً:

١ ـ قُـلْ لإخـوانٍ رأوني مَـيِّـتـاً ... فـبـكـوني ورثَـوْني حـزَنـا

٢ ـ أعـلَى الغـائِب مني حُـزنُكم ... أم عـلى الحـاضر مَعْكم هـا هُنـا

٣ ـ أتـظنُّـون بـأني مَـيْتُـكـمْ ... لـيس ذاك المَـيْـت واللهِ أنـا

٤ ـ أنـا في الصُّـور وهـذا جسَـدي ... كـان لِـبْسي وقـمـيصي زمَـنـا

٥ ـ أنـا كـنـزٌ وحجـابي طـلْسَمٌ ... مـن تُـراب قـد تهـيَّـا لـلفَـنـا

٦ ـ أنـا دُرّ قـد حـواني صَـدَفٌ ... طِـرتُ عـنـه فـتـخـلّى رَهَـنـا

٧ ـ أنـا عصفـور وهـذا قَـفَصي ... كـان سِجْني فـألِفْتُ السَّـجنـا

٨ ـ أشكـر الله الـذي خلَّصـني ... وبـنَى لي في المـعـالي رُكُـنـا

٩ ـ كنت قبـل اليـوم ميْتـاً بينكم ... فـحـيِيـتُ وخَـلَعْـت الـكَـفَـنـا

١٠ ـ فـأنـا اليـوم أُنـاجِي مَـلأً ... وأرى الله جـهـاراً عـلَنـا

١١ ـ عـاكِف في اللوح أقْـرا وأرى ... كـلَّ مـا كـان ويـأتي وَدَنـا

١٢ ـ وطـعـامـي وشرابي واحِـدٌ ... هـو رمـزٌ فـافـهـمـوه حَـسَنـا

١٣ ـ ليس خمـراً سـائغـاً أو عسَـلاً ... لا ولا مـاءً ولـكـن لَـبَـنـا

١٤ ـ هـو مشروب رسـول الله إذْ ... كـان يَسْرِي فِـطْرُه مـعْ فِـطْرنـا

١٥ ـ فـافهمـوا السر ففيـه نـبَـأٌ ... أيُّ مـعـنى تحـتَ لـفْظ كـمَـنَـا

١٦ ـ فـاهدِمـوا بيتي ورُضُّـوا قفَصي ... وذَرُوا الـطِّلْسَـم بـعـدي وثَـنَـا

١٧ ـ وقـمـيصي مـزِّقُـوه رِمَـمـاً ... ودعـوا الـكـل دفِـيـنـاً بـيـنـنـا

١٨ ـ قد ترحلت وخلَّفتُكُم   لست أرضى دارَكم لي وطنا

١٩ ـ حيٌّ ذي الدار نَؤُومٌ مغرق   فإذا مات أطار الوسَنا

٢٠ ـ لا تظنوا الموت موتاً إنه   لَحياةٌ هي غاياتُ المُنى

٢١ ـ لاتَرُعْكُمْ هجْمةُ الموت فما   هي إلا نُقْلة من هَا هُنا

٢٢ ـ فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم   تُبصِروا الحق عِياناً بيِّنا

٢٣ ـ وخذُوا في الزَّاد جهداً لا تَنُوا   ليس بالعاقِل مِنَّا مَن ونَى

٢٤ ـ أحسنوا الظن برب راحم   تشكروا السعي وتأتُوا أمَنا

٢٥ ـ ما أرى نَفْسيَ إلا أنتمُ   واعتقادي أنكمْ أنتُمْ أنا

٢٦ ـ عُنصُر الأنفُس منا واحد   وَكذا الجسم جميعاً عَمَّنا

٢٧ ـ فمتى ما كان خير فلَنا   ومتى ما كان شر فَبِنا

٢٨ ـ فارحموني ترحموا أنفسكم   واعلموا أنكمُ في إثْرَنا

٢٩ ـ أسأل الله لنفسي رحمةً   رحم الله صديقاً أمَّنا

٣٠ ـ وعليكم من سلامي صيِّبٌ   وسلام الله بَدْأً وَثُنى

٣١ ـ أبدَ الدهر إلى يومٍ يَرى   بعضُنا بعضاً لِرحْب وَهَنا

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	ابو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر